

الفصل الأول نهر النيل بحدود مدينة القاهرة

مقدمة : مكانة نهر النيل عند المسلمين :

نهر النيل أعظم نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى لمصر وأهلها على مر التاريخ، فهو لهم حياة ووجود، ورزق وسعود، وجمال وخلود، وقد وجد النيل حظه من التبجيل والتقدير في زمن حكم الفراعنة وما تلاهم من الاغريق والرومان، كما حظى في حظيرة الإسلام بمكانة دينية مرموقة وحسبه ذكره في القرآن الكريم وفي كتب الحديث النبوي الشريف، وقد نعته المسلمون بأنه «سيد الأنهار» وأنه «بحر النيل المبارك».

ولأن النيل شريان الحياة لمصر فقد عنى به حكام مصر على مدى التاريخ الإسلامي عناية كبيرة للحفاظ على جريانه وضبطه الضبط الصحيح بما يكفل لهم حياة آمنة، فأقاموا السدود والجسور عندما كان يطغى ويزيد عن الحد الذى يكفل لهم حياة وزراعة آمنة، ويحفروه عندما يقل عن الحد وتعوق الرمال والنباتات جريانه، وكان المصريون يدفعون الثمن دائما أرواحهم وأموالهم وأملاكهم فى تلك المشاريع، كما عنوا بدراسته ووصفه ورصد أوقات فيضانه فأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه، واحتفلوا الاحتفالات البهيجة الرائعة بمواسم فيضانه، وأقاموا النظم لربط سنتهم الهجرية بالسنة الشمسية التى تسير عليها مواعيد فيضان النيل والزراعة وجمع أموال الخراج.

وكتب المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون الكتب والمقالات لدراسة النيل ووصفه ودراسة فروعه وخلجانه وجسوره وقنواته وقناطره ومقاييسه، وحظى النيل فى مجال الأدب بنصيب وافر فأفاض الأدباء فى وصفه والتغنى به ونثرا مما خلف أديبا جماتا أديبا خالدا.

وإذا كانت اليوم صيحات النداء للمحافظة على البيئة ترتفع وتتعالى، فقد سبق الإسلام تلك الصيحات بزمان كبير ويتجلى ذلك فى الحفاظ على الأنهار ومنها نهر النيل، فقد أجمع فقهاء المسلمون على أنه لا يجوز البناء على شاطئ النهر للسكنى ولا لغيرها إلا القناطر المحتاج إليها لأنها ملك للناس جميعا فلا يجوز التعدى عليها، لذا فقد وضع الفقهاء «حرم» لتلك المجارى المائية لا يجوز البناء فيها بأى شكل من الأشكال فكان حرم العيون خمسمائة ذراع وحرم الأنهار ألف ذراع^(١).

وعن ذكر النيل فى «القرآن الكرىم» فقد ورد فى عدة مواضع إما تصرىحا أو تلمىحا، وقد خصه الله سبحانه وتعالى بلفظ «اليم» التى تطلق أيضا على البحار فجاءت وقفا على نهر النيل دون غيره من الأنهار، جاء ذلك فى قوله تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لُهُ ﴾ (٢)، وفى قوله سبحانه وتعالى أيضا، ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾ (٣).

وقد ذكر النيل بصفة ضمنية بمعناه فى قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (٤) فالمقصود بالانهار فى هذه الآية هى نهر النيل وفروعه حيث كانت أرض مصر فى أيام فرعون عامرة بالقناطر والجسور بتدبير وتقدير حتى أن الماء كان يجرى تحت منازلهم وأقيبتها فيحبسونه كيف شاءوا ويطلقونه حيث شاءوا (٥)، كما فسر بعض المفسرين قوله تعالى أخبارا عن فرعون الذى حدد لسيدنا موسى عليه السلام موعدا لمقابلة السحرة ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضَحَىٰ ﴾ (٦)، أنه يعنى الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج إذ أن العادة قد جرت منذ القدم على أن اجتماع الناس لتخليق المقياس يكون فى هذا الوقت (٧)، وفى قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٨) فسر المفسرون هاتين الآيتين أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتى النيل من أوله إلى آخره على الجانبين جميعا ما بين أسوان إلى رشيد (٩).

(١) ابن الحاج (أبو عبدالله محمد بن محمد العبرى الفاسى، ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م)، المدخل، ط ١ (المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩م، ج١)، ص ٢٤٧.

(٢) سورة طه: الآية ٣٩. (٣) سورة القصص: الآية ٧.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٥) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، (ط دار المعارف، ١٩٧٨م)، ص ١٠٤.

(٦) سورة طه: الآية ٥٩.

(٧) النوبرى (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النوبرى، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)، نهاية الأرب فى فنون الأدب (ط دار الكتب، ١٩٢٤)، ج١، ص ٢٦٤، الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الشهير بالطواط الكتبى، ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)، مباهج الفكر ومناهج العبر، ج١، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٩ علوم طبيعية) ورقة ٨٦، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦١.

(٨) سورة الشعراء: الآيتين ٥٧، ٥٨.

(٩) السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، ١٩٦٧)، ج٢، ص ٣٤٦.

أما ما خص النيل من الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ فكثير، قليل منها ذكر فى صحيحى مسلم والبخارى خصوصا فى أحاديث الاسراء والمعراج فقد ورد عن أنس بن مالك فى حديث المعراج ثم رفعت إلى سدره المنتهى فإذا نبتها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت : ما هذا يا جبريل؟ فقال : هذه سدره المنتهى وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان قلت : ما هذا يا جبريل؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات^(١).

وفى صحيح مسلم حديث ينتهى سنده إلى أبى هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة »^(٢).

وقد أورد المقرئى فى خططه ما جاء فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة «نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ، وإنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤنه، وجعل دجلة وبلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئا قليلا وذلك القليل بتعب ومؤونه فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين»^(٣).

وروى ابن عبد الحكم عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يده فتمده الأنهار بمائها، وفجر الله له عيوناً فأجرته إلى ما أراد الله عز وجل، فإذا انتهت جريته أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره»^(٤).

وإذا تتبعنا بقية الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ فيما يخص النيل لوجدناها كثيرة جدا، وتبدو هذه الأحاديث فى رأى المتواضع أنها من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعية، وقد ورد ذكرها فى كتابات مؤلفى العصرين المملوكى والعثمانى لأنهم هالوا نهر النيل بصفة

(١) انظر : الألف المختارة من صحيح البخارى، تحقيق عبد السلام هارون، ج٢، (نشر الخانجى، ١٩٧٩م)، ص ٧٧. التويرى، نهاية الأرب، ج١، ص ٢١٣، المنوفى (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد، ت ٩٣١/١٥٢٥م)، الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، (مخطوط بدار الكتب، رقم ٦٦ جغرافيا) ص ٩.

(٢) حديث مسلم، كتاب ٥١ حديث ٢٦، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٠.

(٣) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٥١.

(٤) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله، ت ٢٥٧هـ/٨٧١م)، فتوح مصر وأخبارها، (ط ليدن، ١٩٢٢م)، ص ١٤٩، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٥٠.

القداسة والإيمان وأنه سيد الأنهار، وقد سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته، وهو يجرى بوحى من الله وهو نهر الخمر فى الجنة (١).

أما عن الكتابات العلمية للجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين عن نهر النيل وفيضانه فكثيرة جدا إلا أن معظم كتاباتهم تعتمد على ما نقلوه من علماء الأغرقيق والرومان وتملؤها الخرافات والأساطير خصوصا فى الكلام عن منابعه، أما عن جريان النيل فى أرض مصر فقد اتسمت بالدقة (٢).

أولا: تحول شاطئنا النيل بحدود مدينة القاهرة منذ الفتح الإسلامى حتى سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م

تحول مجرى النيل منذ الفتح الإسلامى لمصر حتى العصر الحديث ثمان مرات على شاطئه الشرقى ومرتين على شاطئه الغربى (٣)، وقد تأثرت عمارة القاهرة وضواحيها نتيجة لتلك التحولات، وهذه التحولات إما طبيعية أو صناعية.

ويرجع المرحوم الأستاذ «محمد رمزى» هذه التحولات المتكررة إلى ما كان عليه اتساع مجرى النيل بين شاطئيه فى الأزمنة السابقة وبسبب قوة جريان ماء النيل وقت الفيضان، حيث تسلط هذه القوة على أراضي الجزر وعلى الأراضي المرتفعة الواقعة على جانبيه مجرى النيل وعلى الأخص الأجزاء التى لا تتحمل مقاومة تيار الماء الجارف فيأكلها النهر بتيار وينقل طينها من مكانه الأسمى ويطرحة بجوار الشواطئ البعيدة عن تأثير قوة جريان ماء النيل وأن قوة وسرعة جريان التيار وقت الفيضان تخف بجوار الشواطئ فى المناطق التى يكون فيها مجرى

(١) للمزيد فى هذا الموضوع انظر: ابن ممتى (أبو المكارم اسعد بن مهذب، ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوربال (القاهرة، ١٩٤٣) ص ٧٤-٧٥، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٥٠-٥١، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٠، الحجازى (شهاب الدين أحمد بن محمد، ت ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م)، نيل الرائد فى النيل الزائد، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٨٠ جغرافيا)، ص ٨-٩، المتوفى، الفيض المديد، (مخطوط)، ص ١٢، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، (مطبوعات دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م) ص ١٥٧-١٧٧، حمدى المناوى، نهر النيل فى المكتبة العربية، (القاهرة، ١٩٦٦)، ص ١٧-٢٣، قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ١٠٤-١٠٦.

(٢) عن هذا الموضوع انظر مثلا: المقرئى، الخطط، ج١، ص ٥١-٥٧.

(٣) عاليج المرحوم الأستاذ محمد رمزى هذا الموضوع على أتم وجه فهو الذى حصر تحولات النيل بالقاهرة وحقق أماكنها فى مقاله: الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة (شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة وما طرأ عليها من التحولات من الفتح العربى إلى اليوم)، مجلة العلوم، المجلد الرابع، السنة التاسعة، ١٩٤٢، ص ٤٩٧-٥٢٣.

النيل واسعا فيرسب الطمي الذي تحمله المياه تدريجيا على الجانب الذي تضعف فيه قوة التيار، وعلى أساس هذه النظرية تكرر حدوث طرح البحر في مجرى النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة^(١).

وكانت هذه الأراضي التي نتجت عن ظاهرة طرح النهر تبقى فترة لينة وغير متماسكة حتى تماسك مع الزمن وتصلح لأغراض البناء عليها والزراعة بها^(٢).

وقد كان النيل وقت الفتح العربي لمصر يمر شاطئه الشرقي تحت الباب الغربي لقصر الشمع (حصن بابلين) وتحت جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ثم يسير إلى الشمال مارا في الجهة الغربية من جامع السيدة زينب على بعد ثلاثمائة متر من موقع الجامع الحالي، ثم يسير النيل في طريقه مارا في الجهة الغربية من ميدان عابدين فشارع عماد الدين ومنه إلى قرية أم دنين حيث يوجد الآن جامع الفتح (أولاد عنان) بميدان رمسيس ثم إلى منية السيرج، وكانت الأراضي الواقعة بين هذا الشاطئ وبين جبل المقطم تجاه القاهرة كلها أرض زراعية يخترقها الخليج المصرى من الجنوب للشمال^(٣) (شكل ٥).

وأما من الجهة الغربية فكان النيل بعد أن يمر تحت سكن مدينة الحيزة يسير إلى الشمال مارا تحت سكن الدقى ثم يسير في طريقه إلى الخوتية (العجوزة حاليا) ومنها إلى امبابه^(٤).

وهذه التحولات كما حصرها الأستاذ محمد رمزي، هي:

(١) **التحول الأول**: حدث سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م وقت ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر حيث طرح البحر أرضا جديدة اتصلت بالشاطئ القديم في المسافة الواقعة الآن بين ساحل أثر النبي وبين النقطة التي يتلاقى فيها بشارع السد البرانى بشارع بيرم التونسي (سكة المديح سابقا) بقسم السيدة زينب^(٥).

(١) محمد رمزي، المرجع السابق، ص ٤٩٨، وانظر أيضا Kubiak, Al Fustat, Its Foundation and Early Urban Development, Cairo, AUC. 1987. P. 47.

(٢) اندريه ريمون، فصول التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية «مجموعة مقالات» ترجمها زهير الشايب، نشر روز اليوسف، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨٩، Clergel (M), Le Cairo, Etude De Géographie Urbaine et D'histoire Economique, Le Cairo, 1934, P. 194, Haswell, Cairo, Origin and Development, Some Notes on the Influence of the River Nile and Its Changes, Bulletin de la Societe Royale de Geographie D'Egypte. Vol. II (3-4) December 1922, pp. 171 - 176.

(٣) محمد رمزي، المرجع السابق، ص ٤٩٧. (٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) نفس المرجع، ص ٥١١ - ٥١٢، وقد استنتج المرجع محمد رمزي ما ذكره من خلال ما كتبه المقرئ عن ساحل النيل في الخطط، ج١، ص ٣٤٣، ج٢، ص ١١٣.

(٢) **التحول الثانى** : ظهر هذا الطرح حوالى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م أى فى زمن الدولة الأخشيدية إذ طرح النهر أرضا جديدة أوصلته بالشاطئ القديم الأسمى فى المسافة الواقعة الآن بين جامع الطيبى بشارع الديورة بقسم السيدة زينب وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع التحرير (الخديوى إسماعيل سابقا) بشارع محمد فريد (جزء من شارع عماد الدين سابقا)^(١).

(٣) **التحول الثالث** : ظهر حوالى سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م أى فى زمن الدولة الفاطمية إذ طرح البحر (النهر) أرضا جديدة اتصلت بالطرحين السابقين فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى (توفيق سابقا) بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقا)^(٢).

(٤) **التحول الرابع** : ظهر حوالى سنة ٥٦٠هـ / ١٢٥٢م أى فى أوائل حكم الدولة المملوكية البحرية إذ طرح البحر أرضا جديدة متصلة بالطرح الثالث فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع النباتات بشارع إبراهيم باشا نجيب بجاردن سىتى وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع مريت باشا بشارع رمسيس^(٣).

(٥) **التحول الخامس** : ظهر حوالى سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م واتصلت أرضه بالطروح السابقة فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان باشا الفرنساوى بشارع كورنيش النيل (عمرو بن العاص سابقا) بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع مريت بشارع رمسيس^(٤).

(٦) **التحول السادس** : وهى أكبر طرح ظهر لمدينة القاهرة وقد حدث سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وتمثل أرضه الآن قسم بولاق بأكمله وجزء من قسم الأريكية والأرض الواقعة بين السكك الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج، وطمت أيضا أرض السيالة التى كانت فاصلة بين أراضى منية السيرج والشرايبة

(١) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٢ - ٥١٣، وقد استنتج الأستاذ رمزى ما ذكره اعلاه من خلال ما كتبه المقرئى فى الخطط عن ساحل النيل بمدينة مصر، ج١، ص ٣٤٤. وانظر أيضا : على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، (ط بولاق، ١٣٠٦هـ)، ج١٨، ص ١١٦.

(٢) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٣ - ٥١٤، وقد استطاع الأستاذ رمزى تحديد هذا الطرح من خلال ما ذكره المقرئى فى الخطط فى كلامه عن المنشأة، ج١، ص ٣٤٥. وفى كلامه على الميدان الصالحى، ج٢، ص ١٩٨ وفى كلامه عن اللوق، ج٢، ص ١١٧.

(٣) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٤، وقد استنتج الأستاذ رمزى ذلك من خلال ما كتبه المقرئى فى الخطط فى كلامه عن الصناعة، ج٢، ص ١٩٨.

(٤) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٥، وقد استنتج الأستاذ محمد رمزى ذلك من خلال ما كتبه المقرئى فى الخطط عن ساحل النيل بمدينة مصر، (ج١، ص ٣٤٥) وعن الصناعة، (ج٢، ص ١٩٧).

وميدان رمسيس من جهة وبين جزيرة القيل التي بها الآن قسما شبرا وروض الفرغ من جهة أخرى (١).

(٧) **التحول السابع** : ظهر هذا الطرح فى سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م فى المسافة الواقعة بين مبنى فندق هيلتون النيل وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع أبو الفرغ بشارع جزيرة بدران (٢).

(٨) **التحول الثامن** : ظهر فى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠م وشمل المنطقة التى تحده اليوم من الشمال بقم ترعة الإسماعيلية ومن الغرب بمجرى النيل الحالى ومن الجنوب من حد مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليا ومن الشرق بشارع المطبعة الأهلية ببولاق وشارع أبو الفرغ وشارع جسر طراد النيل، وهذا هو الطرح الثامن والأخير تجاه القاهرة (٣).

يتضح مما سبق أن شاطئ النيل الشرقى الحالى لمدينة القاهرة استجد جميعه بعد الفتح العربى لمصر من أثر النبو جنوبا إلى قم ترعة الإسماعيلية شمالا . (انظر الخريطة).

أما عن الشاطئ الغربى للنيل بالجيزة تجاه القاهرة فقد طرأ عليه تحولان الأول بعمل هندسى تم بين سنتى ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٦٥م فى عهد الخديوى إسماعيل، والطرح الثانى أعقبه فى سنة ١٨٧٠م كنتيجة ترتيب على التحول الأول (٤).

ثانيا : الاهتمام بحضر النيل وإقامة الجسور عليه لضبطه بطول القاهرة حتى نهاية العصر العثمانى :

كان اهتمام ولاة مصر وخلفائها وملوكها وسلاطينها حتى بداية دولة المماليك منصبا على فرع سيالة الروضة وذلك لمجاورته للفسطاط ومصر القديمة - مركز التجمع السكانى والعمرانى حتى العصر الأيوبى - وكذلك لعدم تعمير الخطط على النيل فى مواجهة القاهرة إلا فى العصر المملوكى بوجه خاص ، ولما عمرت الخطط فى العصر المملوكى اهتم السلاطين بالنيل فى المسافة بين الحد الشمالى لمصر الفسطاط حتى شبرا .

وقدمتم الحفاظ على فرع الروضة (سيالة الروضة) بفضل التدخل البشرى لحمايته على مدى تاريخ مصر الإسلامى، ولم يضع كما وضع الفرع الذى كان يحيط بجزيرة القيل بالقاهرة ، وكان حرص حكام مصر على الاعتناء بفرع الروضة وخاصة أيام الأيوبيين

(١) نفسه ص ٥١٦ . (٢) نفسه، ص ٥١٦ .

(٣) نفسه، ص ٥١٨ .

(٤) انظر بالتفصيل، محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

والماليك يرجع لأنه مصدر تزويد مدينة الفسطاط بالماء وكذلك وقوع ساحل الفسطاط عليه وهو أكبر موانئ مصر النيلية آنذاك خصوصا بعد أن طم ميناء المتس الذي كان ميناء القاهرة وتحول ميناؤها إلى بولاق بعد ذلك بقرنين .

وكان الاهتمام بفرع الروضة يتم بأسلوبيين أولهما حفره، وثانيهما تعلية قاع فرع الجيزة وعمل السدود الحجرية به حتى يتجه الماء إلى فرع الروضة .

حفر سيالة الروضة قبل العصر المملوكي :

ظهرت الحاجة الملحة للاهتمام بحفر سيالة الروضة في زمن الدولة الأخشيديّة (٣٢٣- ٣٥٨هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م) ففي سنة ٣٣٦هـ / ٩٥٠م جف النيل في فرع سيالة الروضة، واضطر سكان الفسطاط أن يجلبوا ماء النيل من فرع الجيزة، لذلك تولى الأستاذ كافور الأخشيدي مقدم أمراء الدولة لأنوجور بن الأخشيد حفر الروضة فتم حفره ودخل الماء إليه وانتفع به أهل الفسطاط (١) .

ومع الزمن كان النيل ينحسر عن البر الشرقي للفسطاط إلى الغرب لذا كانت تنكشف أراضي جيدة على ساحل مصر الفسطاط وتكثر الرمال بسيالة الروضة ويضعف جريان الماء بها ويتحول إلى الفرع الغربي ناحية الجيزة، ونظرا لتراكم الرمال بسيالة الروضة سنويا صار قاعها يخاض بالأقدام، وكانت لا تملأ إلا في وقت الفيضان فقط (٢) .

وقد حدث أن انحسر الماء عن ساحل مصر القديمة قبل سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م وصار يقل في زمن احتراق النيل بعد ذلك حتى صار الطريق إلى المقياس يابساً، فلما كان في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م خاف السلطان الملك الكامل محمد (٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧م) من تباعد النيل عن العمران بمصر فأمر بحفر فرع الروضة من جهة دار الوكالة (٣) إلى صناعة

(١) المقرئزي، الخطط، ج١، ص ٣٤٤، السيوطي، كوكب الروضة، (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٦٤ تاريخ)، ورقة رقم ٣٦ .

(٢) المقرئزي، نفس المصدر والصفحة .

(٣) دار الوكالة هذه كان أصلها دار الملك التي كانت عبارة عن منظرة (قصر) بناها الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م، وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متزهات الخلفاء، وكان بها بستان عظيم، ومازالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فجعلها الملك الكامل محمد دار متجر، ثم عملت في أيام الملك الظاهر بيبرس دار وكالة .

وقد ذكر «المقرئزي» أن موضعها كان ما وراء رجة الخروب بجوار المدرسة المعزية وبقي منها جدار يجلس تحتها يباعو الحناء . الخطط، ج١، ص ٤٨٣، ويمثل موقع دار الملك الآن المنطقة الواقع بها قسم شرطة مصر القديمة بجوار جامع عابدي بك (أثر رقم ٥٢٤) الذي حل محل المدرسة المعزية .

التمر الفاضلية^(١)، واستمر العمل فيه مدة ثلاثة أشهر من مستهل شهر شعبان إلى آخر شهر شوال، حتى صار الماء يحيط بجزيرة الروضة دائما بعد أن كان فرع الروضة جدولا رقيقا^(٢).

وقد كان هذا العمل بمثابة مشروع قومي فقد ذكر المؤرخون أن الملك الكامل عمل فيه بنفسه وألزم الأمراء وأعيان الناس بالحفر إلى جانب عامة أهل القاهرة، وقدم توزيع نفقات الحفر على الدور التي تقع بالقاهرة ومصر والروضة^(٣).

وكان الاهتمام الأعظم بفرع سيانة الروضة على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ / ١٢٣٩ - ١٢٤٩م) وذلك لبناء قلعته الصاحية جنوب جزيرة الروضة، فأراد أن يحيط الماء بالجزيرة طول العالم، فغرق عدة مراكب محملة بالحجارة في فرع النيل الغربي تجاه الجزيرة حتى يتحول الماء إلى فرع الروضة، وسار في كل سنة يحفر فرع الروضة بجنده ونفسه^(٤)، وكان يتم طرح الرمل في البقعة التي عمر فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون جامعته الذي سمي الجامع الناصري الجديد^(٥) على النيل، ونتج عن ذلك أن شرع خواص السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالعمارة على ساحل مصر من موضع الجامع الناصري الجديد إلى المدرسة المعزية^(٦).

(١) صناعة التمر الفاضلية كان أصلها دار وقف على فكاك الأسرى بناها القاضي الفاضل وعرفت بعد ذلك بصناعة التمر الفاضلية. ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١٢، ويمثل موقعها الآن منطقة فم الخليج.

(٢) المقریزی، الخطط، ج١، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) ابن المقفع (ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، ج٤، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ٥٦ - ٥٧. المقریزی، الخطط، ج١، ص ٣٤٥.

(٤) المقریزی، نفسه.

(٥) الجامع الناصري الجديد بناه الملك الناصر محمد سنة ٧١٢هـ، وقد اندثر الآن وكان موقعه المنطقة التي يخترقها شارع السكر والليمون المتفرع من شارع كورنيش النيل بمصر القديمة بقم الخليج. ولزيد من التفاصيل عنه، انظر ما يلي ص ٤١.

(٦) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدير، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، (ط بولاق، ١٨٩٣م)، ج٤، ص ٧٧، المقریزی، الخطط، ج١، ص ٣٤٥، السلوك ج١، ص ٣٤١، السيوطي، كوكب الروضة (مخطوط) ورقة ٣٧.

المدرسة المعزية أنشأها الملك المعز ايبيك سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م ومحلها الآن جامع عابدي بك (أثر رقم ٥٢٤) المطل على شارع كورنيش النيل بمصر القديمة وما حوله. ولزيد من التفاصيل عنها، انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٩٢ - ٩٣، محمد رمزي، تعليقه على النجوم الزاهرة لابن تغري بردى، ج٧، ص ١٤.

حفرة النيل بطول القاهرة في العصر المملوكي:

استمر الاهتمام بحفر فرع الروضة في العصر المملوكي، وقد اهتم بذلك السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ م) ففي سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م تم حفر فرع سيالة الروضة، وقد شارك السلطان بنقشه وعساكره في الحفر^(١).

وفي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) ازداد العمران على ساحل مصر وأتم ما كان قد بدأه الصالح نجم الدين أيوب من بناء وعمل بساتين على الساحل، فأتاح الناصر محمد للأمراء والناس إقامة الدور والقصور والناظر والمنشآت الأخرى على ساحل النيل من دير الطين (دار السلام حاليا) جنوبا حتى منشأة المهراني (القصر العيني حاليا) شمالا^(٢).

أما أعظم مشروع للاهتمام بحفر سيالة الروضة والجانب الشرقي للنيل كله - شرقي الجزيرة الوسطى حتى بولاق - فقد تم على يد الملك المؤيد شيخ^(٣) (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢٠ م)، ففي شهر صفر ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م وقع المشروع في حفر الرمال التي أحدثت ما بين الجامع الناصري الجديد خارج مدينة مصر وبين جامع الخطيرى ببولاق^(٤)، وسبب ذلك أن النيل في ذلك الوقت قد غير مجراه إلى الغرب عما كان سابقا وصار جانب النيل الشرقي فيما بين طرا و طرف جزيرة الروضة رمالاً لا يعلوه الماء إلا في أيام الفيضان فقط، وصار معظم الماء يمر من غرب جزيرة الذهب ويستمر تياره يسير بقوة غرب جزيرة الروضة وغرب الجزيرة الوسطى، أما الجانب الشرقي من تلك الجزر فقد زادت الرمال بها زيادة كبيرة وتكاد تكون منقطعة الماء فخربت معظم الأماكن والخطط على البر الشرقي للنيل مثل منشأة المهراني^(٥)،

(١) المقرئى، السلوك، ج١، ص ٥٤٤. (٢) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٣٤٥.

(٣) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣٠٢.

(٤) جامع الخطيرى ذكره «المقرئى» وقال أنه بناحية بولاق وكان موضعه قديما مغمورا بالماء إلى نحو سنة ٧٠٠ هـ، ولما انحسر النيل زرع مكانه وصار موضعه متنزها يجتمع عنده الناس ثم بنى مكانه دار فاشتراها الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى احد الأمراء مقدمى الألو ف فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون فهدم الدار التى كانت مكان الجامع وكانت تعرف بدار الفاسقين وبنى مكانها هذا الجامع وسماه جامع التوبة وبالغ فى عمارته وزخرفته وقد تم بناءه سنة ٧٣٧ هـ، وقد طغى النيل عليه عدة مرات فهدم وجدد مرات عديدة. انظر: الخطط، ج٢، ص ٣١٢.

وأقول أن البقايا الأثرية للجامع كانت موجودة لوقت قريب وهو موقع ومسجل بفهرس وخريطة القاهرة للأثار الإسلامية (لوحة ١ أثر رقم ٣٤١) إلا أن تلك البقايا قد أزيلت حاليا وبنى موضع الجامع جامع جديد البناء، وهو يقع بأول شارع الخطيرى المتفرع من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) إلى الشرق قليلا من كوبرى أبو العلا.

(٥) عن منشأة المهراني، انظر ما يلى، ص ٤٢.

ومنشأة الكتبة^(١)، وخط موردة البلاط^(٢)، وخط زربية قوصون^(٣)، وخط فم الخور وحكر ابن الأثير^(٤)، لانقطاع الماء عنها، وكانت تلك الأمكنة في غاية العمارة فاتفق أن السلطان المؤيد ركب إلى هذه النواحي وكان عهده بها عامرة فسأل عن سبب خرابها فأخبره فأراد حفر ما بين الجامعين الناصري والخطيرى ليعود الماء إليها شتاءً وصيفا كما كان أولاً ثم يشرع فى الأمر بعمارتهما^(٥).

وقد أمر المؤيد فى يوم السبت عاشر صفر ٨١٨هـ / ١٤١٥م أن يشرع فى الحفر وندب له الأميرين كزل العجمى وسودون القاضى، وتم تجهيزهم بما يلزمهم من أبقار لجرف الرمال وأدوات الحفر وغير ذلك، وقد استمر العمل بقية شهر صفر وشهر ربيع الأول^(٦). وكان العمل فى هذا الحفر على درجة كبيرة من الأهمية بحيث أنه يكاد يكون الناس جميعا قد شاركت فيه، وقد شدد المؤيد فى العمل وهدد كل من يتوانى عن انجازه فخرج الناس للعمل على هيئة أشبه بأيام النزاه، وقد شارك المؤيد شيخ نفسه وامراءه ووجوه دولته فى العمل^(٧).

(١) عن منشأة الكتبة، انظر ما بلى، ص ٤٩. (٢) عن خط موردة البلاط انظر ما بلى، ص ٥١.

(٣) عن خط زربية قوصون انظر ما بلى، ص ٥٣.

(٤) عن خط فم الخور وحكر ابن الأثير انظر ما بلى، ص ٥٥.

(٥) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣٠٢-٣٠٤، ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، انباء الغمر بابناء العمر، تحقيق حسن حبشى، (القاهرة، ١٩٧٦)، ج٣، ص ٥٤، العيى (بدر الدين محمود العيى، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)، عقد الجمال فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق عبد الرزاق القرموط، (بدون ناشر، القاهرة ١٩٨٥)، ص ٢٢٣، ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاتابكى، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال محرز، وفهيم شلتوت، ج٤، (القاهرة، ١٩٧٠م) ص ٢٧.

(٦) نفس المصادر والصفحات.

(٧) ذكر المؤرخون فى هذا الشأن «أنه فى يوم الاثنين ثانى ربيع الآخر سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م، ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه ومماليكه ووجوه دولته وسار إلى حيث العمل فى حفر البحر تجاه منشأة المهراتى، ونزل فى منخيم قد نصب له هناك، ونودى بخروج الناس للعمل فى الحفير، وكتب حواتيت الأسواق كلها فخرج فى ذلك اليوم الناس طوائف طوائف ومع كل طائفة الطبول والزموور وهم فى لهو ولعب وغلقت الأسواق كلها واقبلوا على العمل ونقلوا التراب والرمل من غير أن يكلف أحد منهم فوق طاقته، وعمل جميع العسكر أيضا من الأمراء والمماليك وجميع أرباب الدولة واتباعهم، ثم ركب السلطان بعد العصر، وقد مدت أسمطة جليلة فكان يوما بالهزل واللهو أشبه منه بالجد، ووقف السلطان حتى فرض على كل أمير من الأمراء حفر قطعة بعينها له وعاد إلى القلعة واستمر العمل والنداء كل يوم بالقاهرة أن يخرج أهل الأسواق وغيرهم للعمل فى الحفير». انظر: المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣١٣، ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ٥٥، العيى، عقد الجمال، ص ٢٢٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٠-٢١.

وأصبح الأمراء الكبار يخرج واحد منهم يوميا ومعه طائفة من طوائف الشعب حتى صوفية الخوانق شاركت في العمل، واستمر العمل طوال شهر ربيع الآخر وأثناء شهر جمادى الأولى أيضا^(١).

وقد صاحب ذلك الحفير عمل جسر يمتد من آخر خرطوم الروضة أى الطرف الشمالى لجزيرة الروضة إلى جزيرة أروى (الجزيرة الوسطى) ليتحول جريان ماء النيل إلى الشاطئ الشرقى فيمتلأ الخليج الناصرى شتاء وصيفا، وكذلك يجرى فى الخلدجان والترع الأخرى المتفرعة من النيل مثل خليج الزريبة^(٢)، فلما قوى ماء النيل فى جمادى الأولى والناس منهمكون فى عمل الحفير والجسر وزاد الماء وبلغ أثنى عشر ذراعا، أكل الجسر وما فاد من تعب الناس فيه شيئا وراح على الناس تعبهم^(٣).

ومن الطريف أن العمل فى ذلك المشروع اتسم بالخفة والظرف دون غيره من المشاريع التى سادت فيها السخرة وهلك فيها بعض الناس من شدة العمل، إذ ذكر «المقريزى» الذى عاصر عمل هذا المشروع . . . خرج ركب الأمير الطنبغا القرشى بالقييل والزرافة بعدة طول وزمور، وقد اجتمع هناك معظم الناس من الرجال والنساء للفرجة، فكثرت سخرتهم وتضحك بعضهم على بعض^(٤).

وكما هو معروف عن المصريين خفة الدم فقد ألف الناس فى عمل الحفير والجسر البلايق (وهى الأغاني الشعبية الهزلية) وصاروا يتغنون بها ويتضحكون ويتهكمون على أنفسهم، فقد ذكر ابن اياس . . . انه لما زاد النيل وبلغ اثنى عشر ذراعا أكل ذلك الجسر وقد خرج المؤيد إلى الشام بسبب عصيان النواب عليه طلع مكان ذلك الجسر الذى عمره السلطان كوادى رمل^(٥)، فنهتكت الناس على الفرجة عليهم، ونصبوا هناك الخيام على الروضة والمنشية ولا سيما العسكر كان غائبا مع السلطان، وصنفوا أهل مصر فى ذلك غنوة وهم يقولون هذه :

يارايح الشام غادى سلّم وبوس الأيادى
وقل لجيش المؤيد أدى الحرير فى الكوادى^(٦)

-
- (١) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٣١٥، العيى، عقد الجمان، ص ٢٢٣.
(٢) كان خليج الزريبة يخرج من موردة الجبس بجوار مخرج الخليج الناصرى وموقعه الآن بجاردن سبتى بالقاهرة وكان يصب فى بولاق حيث يروى أراضيها، وانظر أيضا ما يلى ص ٣١٥.
(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٣٠-٣٢، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢١.
(٤) المقريزى، السلوك، ج ٤، ص ٣١٣-٣١٤.
(٥) الكوادى كما يبدو هى قطع من الأرض مليئة بالرمال كانت محاطة بالماء على هيئة جزر صغيرة.
(٦) بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢١.

عمل الجسور والسدود لضبط النيل بالقاهرة فى العصر المملوكى :

نظرا لوقوع القاهرة على الضفة الشرقية للنيل ، واعتماد الناس على حاجاتهم من الماء عن طريق نهلهم من الشاطئ الشرقى للنيل من الفسطاط جنوبا حتى شبرا شمالا ، وكان يقطع مسار النيل عدة جزر ، فقد كان النيل أحيانا تتدفق مياهه بسرعة وغزارة من الناحية الغربية من الجزر أى ناحية الجزيرة وبولاق التكرور وامبابة ، ويجف أو تقل مياهه ناحية الفسطاط والقاهرة فترتبك حياة الناس وتحدث أزمات كبيرة ، لذلك فقد حرص السلاطين والأمراء على العمل على جعل الفرع الشرقى للنيل هو الفرع الأساس وتحويل المياه إليه بدلا من الفرع الغربى ناحية الجزيرة ، لذا فقد أنشئت العديد من الجسور التى كانت عبارة عن سدود تصل بين جزيرة الروضة والجزيرة أو بين الروضة والجزر الأخرى لكى يتدفق الماء فى فرع سيالة الروضة حتى يحصل أهل الفسطاط والقاهرة على حاجاتهم من الماء بسهولة .

وأحيانا يحدث العكس بحيث تزداد قوة الماء ناحية الفسطاط والقاهرة فتغرق سواحلها والأحياء والخطط الواقعة على النيل مثل منشأة المهرانى وخط فم الخور وبولاق وشبرا فحيث يعمل السلاطين والأمراء الجسور بحيث ترد الماء عن بر القاهرة .

وهذه الجسور على نيل القاهرة تنشأ لمواجهة الطوارئ وحالات طغيان النهر وغرق القاهرة أو جفاف مياه النهر تجاه ساحلها ومن ثم فهى تختلف عن الجسور الدائمة الأخرى التى كانت تمتد على النيل وفروعه والخلجان والترع التى تخدم أغراض الزراعة (١) .

(١) الجسور التى تخدم أغراض الزراعة على طول البلاد وعرضها كان كل منها عبارة عن سد ترابى مبنى على حافة النهر أو الترعة يحفظ الماء من أن يفيض على ضفتيه ويفرق البلاد المحيطة وتستمر هذه الجسور فى حجز مياه الفيضان كى يستفاد منها فى عمليات الري ، حتى ينصرف النيل ويزول الخوف من خطر الفيضان العالى . وكانت الجسور من الأمور الهامة التى تؤثر على الحياة الاقتصادية فى مصر منذ القدم . وكانت فى مصر الإسلامية نوعان من الجسور الأولى هى الجسور السلطانية والثانية هى الجسور البلدية . أما الجسور السلطانية فهى تلك الجسور التى يعم نفعها كل الأرض الزراعية المصرية فى أنحاء البلاد ، لذا كانت تشيد وتم صيانتها من الديوان السلطانى ولها رسوم مقررة على البلاد المصرية فى شكل جراريف ومحارث وأبقار مرتبة على غالب البلاد المصرية ، وكانت الدولة مسئولة عن إقامة وصيانة هذه الجسور وكان لها ديوان مخصوص يقوم العاملون به بتحصيل ضرائب سنوية تخصص لعملها وصيانتها ، وقد وصفت الجسور السلطانية بأنها بمثابة السور المحيط بالمدينة وعلى السلطان أن يهتم بهذا السور ويكفى الرعية أمر التفكير فيه . وكان لهذه الجسور السلطانية كاتب خاص مقرر فى ديوانه ما على كل بلد من الأبقار والجراريف .

أما الجسور البلدية فهى خاصة النفع بناوحى أو قرى معينة لذلك كانت مسئولة انشائها وصيانتها تقع على عاتق المقطعين الأرض فى هذه النواحي والقرى من الأمراء والأجناد وغيرهم من الفلاحين من الأموال الجارية فى اقطاعاتهم ، وقد وصفت هذه الجسور بأنها تماثل الدور الواقعة داخل نطاق سور المدينة (الجسور السلطانية) وبطبيعة الحال فإن كل صاحب دار من هذه الدور مسئول عن صيانة داره وحمايتها . انظر : ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٣٠ - ٢٢٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٤٨ - ٤٥٢ ، قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وكانت طريقة عمل الجسور والسدود بنيل القاهرة تتم عن طريقين ، أما بتعليق أحد فرعى النيل وذلك بتغريق مراكب محملة بالأحجار وإهالة التراب والشقف والطينى والطين علينا لتعليقها حتى تصير سدا محكما ، والطريقة الأخرى هى أن هذه الجسور تقام عن طريق عمل حائطين متوازيين من الأخشاب الصلبة . وافلاق النخيل وحشو ما بينهما بالتراب والشقف والأحجار وغيره (١) .

ومن أمثلة الجسور التى عملت لطرد الماء عن بر القاهرة ما حدث سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث زاد النيل عن ثمانية عشر ذراعا ، وخرق الماء ناحية بستان الخشاب (٢) ودخل الماء إلى جهة بولاق وفاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر وبساتين الخور (٣) فغرقت البساتين وهدمت عدة دور مظلة على النيل وكثير من دور الأحكار بطول شاطئ النيل ، فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر وعرف الناصر محمد أنه متى غفل دخل الماء إلى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها ، فركب السلطان إلى النيل ومعه الأمراء فرأى ما هاله وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة فاقضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء وانصرف ، فقويت الزيادة وفاض الماء على منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة وغرق بساتين بولاق وجزيرة الفيل حتى صار ما بين ذلك ملقه واحدة ، وركب الناس المراكب للفرجة ومروا بها تحت الأشجار ، فأمر السلطان والى القاهرة والى مصر أن يلزما الناس أن يرموا الأتربة بناحية بولاق وفى الأماكن التى علا فيها النيل (٤) .

وكثر الخوف من غرق القاهرة ، وجمع أغلب الناس فى هذا العمل ، وكانت محاصيل كثيرة قد فسدت وتلفت وكذلك مطامير الغلال والمخازن وارتفعت بعض الأسعار وتأخر الزرع عن أوانه لكثرة مكوث الماء ، فكتب لولاه الأعمال بكسر الترع والجسور لكى ينصرف الماء عن أراضي الزرع إلى البحر المالح ، وأخذ السلطان فى عمل الجسور ، واستدعى المهندسين وأمرهم بإقامة جسر يصد الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا ، وكتب باحضار خولة البلاد ، فلما تكاملوا أمرهم فساروا إلى النيل وكشفوا الساحل كله فوجدوا ناحية جزيرة الفيل مما يلى منية السيرج قد صارت أرضها وطيبة ومن هناك يخاف على القاهرة من الماء ، فلما عرفوا السلطان ذلك أمر بإلزام كل من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانى أو منشأة الكتبة أن يعمر قدامها زربية (٥) ففعلوا ذلك . وأمر السلطان الأمراء باستدعاء

(١) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦٥ ، السلوك ، ج٣ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢) بستان الخشاب يشمل منطقة أبو الريش والقصر العينى ، وعنه بالتفصيل انظر ما يلى ص ٥١ .

(٣) عن خليج الخور وبستان الخور انظر ما يلى ص ٣١٠ .

(٤) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦٦ ، السلوك ، ج٢ ، ص ٢٥١ .

(٥) الزربية هى ما يبنيه الناس من أصحاب البيوت المطلة على النيل من حوائط لحماية بيوتهم من فعل الماء ، ومن سبلالم لتسهيل الوصول من تلك البيوت إلى النهر كما هو متبع فى البيوت الباقية على شواطئ =

فلاحيهم من النواحي فحضروا بالأبقار والجراريف لعمل الجسر من بولاق إلى منية السيرج، ففاس المهندسون الأرض ووزعت بالأقصاب على الأمراء فنصب كل أمير خيمة وخرج برجاله للعمل ونصبت لهم الأسواق حتى كمل الجسر فى عشرين يوماً، وكان ارتفاع الجسر من الأرض أربع قصبات^(١) فى عرض ثمان قصبات، فانتفع الناس به انتفاعاً كبيراً، وقد أراد السلطان بعمله لهذا الجسر أن لا تغرق البلاد مثلما غرقت سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م^(٢)، ومكان الجسر الآن شارع التريعة البولاقية من بولاق إلى منية السيرج.

وفى سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م قوى النيل على ناحية بولاق وهدم جامع الخطيرى، ثم جدد، وتيار البحر يزداد قوة على بر القاهرة فأمر السلطان الملك الناصر محمد سكان دور شاطئ النيل بعمر زرابى لجميع تلك الدور فلم يفد ذلك شيئاً^(٣).

فاهتم الملك الناصر بهذا الموضوع اهتماماً كبيراً حتى أنه طلب مهندسين من الشام بالإضافة إلى مهندسى مصر، فركب بعساكره وصحبته المهندسين وخولة الجسور وتوجه إلى شاطئ النيل ونزل فى المركب السلطانى المسمى الحراقا وكشف أمر شطوط النيل فاقضى رأى أن يعمل جسر بوسط النيل وأن يحفر بالجزيرة الوسطى خليجاً منخفضاً يمر فيه الماء، وعند زيادة النيل يقف السد حائلاً للماء فيرتد إلى الناحية الأخرى للنيل بحيث يزيد على بر الجزيرة وبولاق التكرور وامبابية^(٤).

وهذا هو الذى سماه المقرئى «الجسر بوسط النيل»^(٥) ومما ذكره المقرئى وابن تغرى

= النيل بدمياط وسمنود ورشيد، كما كانت الزربية أيضاً مكان لتربية الخيول أو الماشية، وكانت تحاط بزربى (حزم) من البوص أو الغاب ثم يشد بالحبال ثم يطين ليزداد تماسكاً، وقد كانت هذه الزرابى تبنى على ضفاف النيل والخلجان والترع حتى تحمى الدور من ارتفاع الماء، وقد كانت هذه الزرابى منتشرة فى مصر انتشاراً كبيراً فى العصر المملوكى، ومن معانى الزربية أيضاً هو الكورنيش. انظر: السلوك، ج٢، ص ٢٥١، الحاشية.

(١) القصة التى كانت تستعمل فى القياس فى العصر المملوكى هى القصة الحاكمية وكان طولها يوازى الآن ٣٨٥ متراً. انظر: عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة قراقجا الحسنى مجلة كلية الآداب، المجلد ١٨، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٥٦، ص ٢٣٦.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٦-١٦٧، السلوك، ج٢، ص ٢٥١.

(٣) الشجاعى (شمس الدين الشجاعى، ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م)، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، (نشر فرانز شنانبر، فيسبادن، ١٩٧٨)، ص ٣١، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٧، السلوك، ج٢، ص ٤٤٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٢٥.

(٤) المقرئى، الخطط، ص ١٦٧، السلوك، ج٢، ص ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٢٦-١٢٧.

(٥) الخطط، ج٢، ص ١٦٧.

بردى^(١) فى هذا الخصوص أرى أن هذا الجسر كان يصل ما بين حكر ابن الأثر جنوب بولاق وبين رأس الجزيرة الوسطى (بالقرب من موقع فندق شيراتون الجزيرة حاليا)، وأن الخليج الذى حفر كان بالجزيرة الوسطى^(٢). (شكل ٦).

وابتدأ العمل فى ذلك المشروع يوم الأحد عاشر من ذى القعدة سنة ٧٣٨هـ، وشأن تلك الأعمال التى تحتاج إلى أعداد كبيرة من الناس وسخرة فى العمل فقد تم استقدام الكثير من الناس من جميع أنحاء مصر، واستقدم الحجارون ورؤساء البحر وصناع السفن، وندب السلطان لهذا العمل الأمير اقبغا عبد الواحد والأمير برصبغا الحاجب، وجمع واليا مصر والقاهرة والناس وسخروهم فى العمل حتى هلك عدد كبير منهم^(٣)، وكان السلطان ينزل إلى موقع العمل ويحث الأمير اقبغا على سرعة إنجازها حتى تم العمل فى النصف الأول من ذى الحجة أى بعد شهرين فقط، وكانت عدة المراكب التى غرقت فيه وهى مشحونة بالحجارة اثني عشر مركبا سعة كل واحد منها ألف أردب غلة، وكانت عدة المراكب التى اشحنت بالحجارة المقطوعة ورميت فى البحر حتى صار جسرا يمشى عليه ثلاث وعشرين ألف مركب، وحفر الخليج بالجزيرة فلما زاد النيل جرى الماء فيها، وتراجع الماء عن بر القاهرة وقوى على بر الجزيرة وبولاق التكرور وامبابة، فسر السلطان والناس جميعا لما كان يعتريهم من خوف على غرق القاهرة فكان هذا الجسر سبب انطراد الماء عنها^(٤).

نتج عن تلك الأعمال التى قام بها الناصر محمد تأثير جانبى كبير إذ أن النيل تحول إلى الغرب وبعد عن بر القاهرة وانكشفت أراضي كثيرة من قبالة منشأة المهرانى إلى جزيرة الفيلى

-
- (١) نفسه، السلوك، ج٢، ص ٤٤٩ - ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٢٦ - ١٢٧.
- (٢) نظرا لعدم الدقة والتحديد من المؤرخين فى الكلام عن هذا المشروع اعتقد المرحوم محمد رمزى أن الجسر كان يصل ما بين بولاق إلى رأس جزيرة الوراق، وأن الخليج الذى حفر كان بجزيرة الوراق وأنه هو الموجود حاليا بين الجزيرة والشاطئ الغربى للنيل، انظر تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٢٤.
- إلا أن هذا الاعتقاد غير عملى لأن المسافة كبيرة بين بولاق ورأس جزيرة الوراق كى يتم عمل الجسر بها، كذلك فإنه لا يخدم المناطق والخطط المعمورة المراد تجنيبها زيادة النيل وهى تمتد من منشية المهرانى (القصر العينى حاليا) إلى بولاق إلى منية السيرج أى أنها توازى جزيرتى الروضة والوسطى بينما المنطقة التى توازى جزيرة الوراق تقع فى شبرا الخيمة أى بعيدة عن الغرض المراد، كما أن فراغ النيل غربى جزيرة الوراق هو الفرع الرئيسى للنيل ويبلغ اتساعه ضعف اتساع الفرع الشرقى.
- وباستعراض أقوال المؤرخين تبين لى أن الجسر كان يصل بين حكر ابن الأثر بجنوب بولاق (أمام فندق هيلتون رمسيس حاليا) إلى رأس الجزيرة الوسطى (جزيرة الزمالك حاليا) بالقرب من موقع فندق شيراتون الجزيرة حاليا، وأن الخليج الذى حفر كان بالجزيرة الوسطى.
- (٣) المقرئى، السلوك، ج٢، ص ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٢٧.
- (٤) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ٣١ - ٣٢، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٢٨. المقرئى، الخطوط، ج٢، ص ١٦٧، السلوك، ج٢، ص ٤٤٩ - ٤٥١.

وإلى منية السيرج، وصار الناس يجدون مشقة لبعث الماء عن القاهرة، وغلت روايا الماء، وكذلك ضعف تيار الماء بسيالة الروضة وصار الماء يخاض بالأرجل من بر مصر إلى المقياس، فكثرت شكاوى الناس بسبب ذلك، وجرت عدة محاولات أثناء سلطنة الكامل شعبان (٧٤٦ - ٧٤٧هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦م)، وسلطنة أخيه حاجي (٧٤٧ - ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٨م) لعمل سدود بين الجزيرة والمقياس حتى يتحول الماء إلى ناحية سيالة الروضة والقاهرة، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل^(١).

فلما كان في سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م في سطنة الملك الناصر حسن ازداد احتراق النيل عما ذى قبل، وازدادت الرمال على الجانب الشرقى للنيل بطول ساحل مصر والقاهرة حتى بولاق، فاقضى الرأى عمل جسرين، الأول بين المقياس والجزيرة والآخر بين جزيرة الروضة والجزيرة الوسطى ليعود جريان النيل ناحية الفسطاط والقاهرة، وكان المشرف على ذلك الوزير منجك، فجهز ما يحتاج إليه في عمل الجسرين، وكانت طريقة عمل الجسرين أن تقام الأخشاب بجانبى كل جسر منهما ورمم التراب والحجارة فى وسطه مع الحلفاء وتم قطع الطين من بر الروض ورميه بوسط الجسر وغرقت عشرة مراكب مملوءة حجارة فى وسط جسر المقياس ورمم عليها التراب، واستمر العمل أربعة أشهر من مستهل المحرم إلى آخر ربيع الآخر ٧٤٩هـ^(٢).

وكان منجك قد حفر أيضا خليجاً تحت الدور من موردة الحلفاء إلى بولاق (شكل ٣٧) فلما زاد النيل جرى الماء ودخلته المراكب الصغار ففرح الناس به وسرورا زائداً ونسوا ما نزل بهم من الغرامة والمشقة، وكانت قد جبيت أموال كثيرة بسبب ذلك المشروع، ولم يتم من العمل سوى ثلثيه وقويت الزيادة فبطل العمل ولم تنزل تقوى حتى علا الماء على جسر الروضة وكاد يقطعه فركب منجك ومعه والى الجزيرة وخلاتق كثيرة من العامة والأمراء ورممه بالتراب فاندفع الماء إلى جهة الميدان السلطاني وزربية قوصون^(٣).

وكان طول جسر الجزيرة الوسطى مائتى وتسعين قصبه فى عرض ثمانى قصبات وارتفاع أربع قصبات وطول جسر المقياس (الذى بين المقياس والجزيرة) مائتى وثلاثين قصبه، وعدة مارمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجارة اثنى عشر ألف مركب سوى التراب والطين وغرم عليه مالا يمكن حصره، ويقال أنه جبي من الناس بسببه زيادة على ثلاثمائة ألف دينار، ويذكر «المقرئى» أنه بقى من جسر منجك هذا بقية كانت موجودة على أيامه فى طرف الجزيرة الوسطى^(٤).

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٧-١٦٨، ابن نغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص ١٣٠-١٣١.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٩. (٣) نفس المصدر والنصفحة.

(٤) عن ذلك بالتفصيل انظر: المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٨-١٦٩، السلوك، ج٢، ص ٧٦١-٧٦٦.

ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٢١-٥٢٣.

وفى عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م كان النيل منطرداً عن بر القاهرة فأراد الأمير جهاركس الخليلي أن يعود الماء إلى بر القاهرة طول العام لذا بدأ فى شهر ربيع الأول من نفس السنة بعمل جسر بين الطرف الشمالى لجزيرة الروضة والطرف الجنوبى لجزيرة أروى (الجزيرة الوسطى) فأقام الخوازيق من خشب السنط وسمر فيها أفلاق النخيل الممتدة كالستارة وألقى بين الخوازيق ترابا كثيرا، بالإضافة لذلك حفر فى وسط النيل خليجاً من الجسر إلى زريبة قوصون (شكل ٣٧)، وغرم جهاركس أموالا كثيرة فى ذلك من ماله الخاص، ومع ذلك لم يأت ذلك الجسر بما كان مرجواً منه، بل حدث عكس ذلك تماماً، فقد ازداد الماء انطراداً عن بر القاهرة ومصر حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شئ كثير من الأراضى التى كانت غامرة بماء النيل، وبعد النيل عن القاهرة بعدا لم يعهد فى الإسلام مثله قط (١).

أما فى العصر العثمانى (٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م) فلم يرد لنا ذكر لأعمال جسور وسدود لضبط النيل تجاه القاهرة، وإنما اهتمت تلك الأعمال اهمالا كبيرا فقد قال المنوفى (ت ٩٣١هـ / ١٥٢٤م) عن سوء الحال الذى وصل إليه أمر الجسور فى آخر العصر المملوكى وأول العصر العثمانى . . . تهدم فى زماننا الجسور وتحكم الفساد وخربت البلاد ووسد الأمر إلى غير أهله ووضع الشئ فى غير محله ولا جرم أن حل بالناس ما حل وانفرد نظام المملكة وانحل (٢).

ثالثا: الخطط التى عمرت فى العصرين المملوكى والعثمانى على أرض طرح النيل بالقاهرة

نتيجة لظاهرة طرح النيل تكونت أراضى جديدة على طول ساحل النيل الشرقى بمواجهة الفسطاط والقاهرة، ومن هذه الأراضى التى ظهرت بفعل طرح النيل الأرض التى كونت منطقة مصر القديمة التى تكونت تماما خلال الخمسة طروح الأولى النيل فى المسافة المحصورة الآن فيما بين أثر النبى جنوبا حتى فم الخليج شمالا.

وفى العصر المملوكى طرح النيل أراضى جديدة على طول ساحل النيل وسرعان ما امتدت إليها يد التعمير إلى جانب زراعتها وغرس البساتين المثمرة بها، وكانت هذه المناطق والخطط

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٩ - ١٧٠، السلوك، ج٢، ص ٤٦٩ - ٤٧٠، ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٢١٣ - ٢١٤، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد أمين، (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م) ج٤، ص ٢٠٦. السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٦، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، (مخطوط بدار الكتب المصرية)، ص ٤٨ - ٤٩.

الجديدة من متزهات القاهرة الحسنة لوقوعها على ساحل النيل وغرسها بالبساتين والحدائق والحقول .

وهذه الخطط والمناطق والسواحل الجديدة هي بالترتيب من الجنوب إلى الشمال :

- | | |
|---------------------|---------------------------------------|
| (١) خط موردة الحلفا | (٢) منشأة المهراني |
| (٣) خط منشأة الكتبة | (٤) خط موردة البلاط والميدان السلطاني |
| (٥) خط زربية قوصون | (٦) خط فم الخور وحكر ابن الأثير |
| (٧) بولاق | (٨) جزيرة الفيل (شكل ٧) |

(١) خط موردة الحلفا^(١) :

انحسر النيل عدة مرات أمام مدينة الفسطاط حتى استقرت الأرض تماما بعد الطرح الخامس له . وقد كان ساحل النيل بعد انحساره الأول يعرف باسم موردة سوق السمك أمام سيالة الروضة^(٢) ثم عرف بعد ذلك باسم موردة الحلفا ربما لنمو نبات الحلفا به .

وكان الاهتمام بتلك المنطقة يرجع إلى آخر الدولة الأيوبية إذ كان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧هـ - ٦٤٧هـ / ١٢٣٩ - ١٢٤٩م) يحفر في كل عام سيالة الروضة ويرمي ناتج الحفر على الأرض أمامها في تلك المنطقة حتى تكونت الأرض وتماسكت واشتدت فبدأ العمران يزحف إليها فبنى الامراء بها الدور والمناظر والقصور وأنشأوا حولها البساتين^(٣) .

وفي زمن الدولة المملوكية ازداد العمران بها وخصوصا أيام الناصر محمد بن قلاوون وصار ساحل النيل أمام موردة الحلفا ميناء تقف بها المراكب المحملة بالغلل ويملا الناس منها الروايا^(٤) .

وقد عمر الملك الناصر محمد قلاوون جامعا كبيرا حسنا بموردة الحلفا وصفه المؤرخون بأنه من أحسن متزهات مصر، وقد تم بناؤه في سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م وكان يسمى الجامع الناصري الجديد وربما جاء هذا الاسم من التعمير الجديد لتلك الحطة في ذلك الوقت، وكان

(١) من معاني الموردة في اللغة «مأناه الماء»، «الطريق إلى الماء»، وكانت تشر على نهر النيل والخلجان كثير من هذه الموردة التي يستقي الناس من عندها . انظر مادة «موردة» في القاموس المحيط للفيروزابادي، وفي المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية .

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٧٧، المقرئ، الخطط، ج١، ص ٣٤٥، ج٢، ص ٣٠٤ .

(٣) ابن دقماق، نفس المصدر والصفحة . المقرئ، نفس المصدر والصفحة .

(٤) المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ٣٤٥ .

هذا الجامع مبنى على نسق المساجد الجامعة فكان يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به الأروقة، وقد ألحق بهذا الجامع جماعة كبيرة من المتصوفة، وقد عمر حول الجامع الدور والبساتين، وظل الجامع عامرا فترة من الزمن حتى خرب ما حوله، وكان فيه بقية حتى أيام المقرئى (ت ٨٤٥هـ)^(١) وقد اندثر هذا الجامع الآن وكان موقعه المنطقة التى يخترقها اليوم شارع السكر والليمون جنوبى فم الخليج بمصر القديمة.

وتشغل موردة الحلفا الآن المنطقة التى تحد من الجنوب بمنطقة دير النحاس بجوار نفق الملك الصالح وتمتد شمالا حتى سور مجرى العيون بضم الخليج (شكل ٨).

وكان يتعاقب على موردة الحلفا فى العصرين المملوكى والعثمانى فترات تتراوح ما بين العمران أحيانا والخراب أحيانا أخرى، الذى كان يأتيها نتيجة طغيان فيضان النيل على مبانيها فيدمرها ويغرق بساتينها وزروعها، وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية نجد صفاً من المباني المتصلة على النيل بموردة الحلفا وخلفها بساتين وحقول.

(٢) منشأة المهرانى :

تلى منشأة المهرانى^(٢) موردة الحلفا وكانت من أهم متنزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى وذلك لوقوع الاحتفال بمهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج بها.

ظهرت أرض منشأة (منشأة) المهرانى أول مرة نتيجة انحسار النيل بعد سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، وقد عمرت فى زمن الدولة الأيوبية حيث أقام القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى^(٣) جامعا وبستانا عظيما بها، وعمرت الدور حينئذ بجوار الجامع فقبل لها منشأة

(١) عن هذا الجامع بالتفصيل، انظر: بيبس المنصورى (ركن الدين بيبس عبدالله المنصورى الدوادار ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م)، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧) ص ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٤، المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ٣٠٤، السلوك، ج ٢، ص ١٠٢، ١١٤، ١١٥، ٦٥، ابن دقماق، الانتصار ج ٤، ص ٧٦-٧٧، ابن تغرى بردى، النجوم، ج ٩، ص ٣٣.

(٢) المنشأة تعبير يطلق على حى جديد بجانب مدينة بتخطيط جديد، ويسمىها الناس المنشية، واسم المنشية منتشر فى كثير من مدن وقرى مصر. انظر: محمد كمال السيد، أسماء ومسميات من مصر القاهرة، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ٢١١.

(٣) هو القاضى الكاتب الأديب عبد الرحيم بن على البيسانى، من أسرة أدبية كبيرة، وقد تولى فى آخر الدولة الفاطمية وأول الدولة الأيوبية عدة وظائف هامة وكان أهمها ديوان الانشاء وقد توفى سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م. انظر بالتفصيل: المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ٣٦٦-٣٦٧.

ومن الجدير بالذكر أن مصلحة التنظيم أطلقت على شارعين متوازيين بالمنيرة متفرعين من شارع القصر العيى. أمام دار الحكمة اسمى شارع بستان الفاضل نسبة لبستانه الذى كان بتلك المنطقة والشارع الثانى =

الفاضل ، وكان بستان الفاضل يغذى القاهرة بالعنب والثمار ، وظلت المنشأة عامرة حتى طغى النيل عليها فحُت سنة ١٢٦٠هـ / ١٢٦٢م^(١) .

وقد عين «المقریزی» موقع منشأة المهراني وتحدث عن تعمیرها فی العصر المملوکی فقال : «أن موضعها فیما بین النیل والخلیج فیها من الحمراء القصوی فوهة الخلیج ، انحسر عنها ماء النیل قديما وعرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل انه كان يعمل فیها أقمنة الطوب ، فلما سأل الصاحب بهاء الدین بن حنا الملك الظاهر بیبرس فی عمارة جامع بهذا المكان ليقوم مكان الجامع الذی كان بمنشأة الفاضل أجابه إلى ذلك وأنشأ الجامع بخط الكوم الأحمر ، وأنشأ هناك الأمير سیف الدین بلبان المهراني دارا وسكنها وبنى مسجدا فعرفت هذه الخطة به وقيل لها منشأة المهراني ، فإن المهراني المذكور أول من ابنتی فیها بعد بناء الجامع ، وتتابع الناس فی البناء بمنشأة المهراني وأكثروا من العمارة حتى یقال أنه كان بها فوق الأربعین من أمراء الدولة سوى من كان هناك من الوزراء وأمائل الكتاب وأعیان القضاة ووجوه الناس ، ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء من الجهة الشرقية فخربت وبها الآن بقية سیرة من الدور^(٢) .

وذكر «المقریزی» المنشية وعین حدودها وما یجاورها فی مواضع أخرى من الخطط^(٣) .

وذكر «ابن دقماق» منشية المهراني ففی كلامه عن الروضة قال « أن جامع الفخر (جامع قايتباي حاليا) بأخر الروضة عند المنیل تجاه طرف منشية المهراني^(٤) وكذلك ذكر «ابن دقماق» أسماء العديد من المساجد والمدارس التي بنيت فی منشية المهراني^(٥) ، وذكر أيضا أن الملك الظاهر بیبرس أمر بعمل جامع بها سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م^(٦) ولكن المؤرخ «ابن تغری بردی» ذكر أنه قد أقيمت الخطبة بجامع الظاهر هذا یوم الجمعة ثامن عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م^(٧) .

= اسم شارع عبد الرحيم البيسانی أى اسم القاضی الفاضل نفسه .

بالإضافة لذلك أطلقت مصلحة التنظيم على شارع ثالث اسم شارع منشأة الفاضل یصل بین شارعی یوسف الجندي وقدادار شرقي میدان التحرير ، وهذا الموقع بعيد عن منشأة الفاضل التي كانت بأول القصر العینی .

(١) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ١١٩ ، المقریزی ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) الخطط ، ج١ ، ص ٣٤٦ . (٣) ج١ ، ص ٣٤٣ ، ج٢ ، ص ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٤٦ .

(٤) الانتصار ، ج٤ ، ص ١١٦ . (٥) نفسه ، ص ١١٩-١٢٠ . (٦) نفسه ، ص ١١٩ .

(٧) النجوم الظاهرة ، ج٧ ، ص ١٥٠ ، يحدث دائما أن يتم انشاء ایوان القبلة فی أى مسجد أو جامع أولا فیفتح ویصلی به الجمعة ثم تستكمل باقی الأعمال بعد ذلك ، وعلى ذلك نقول أن افتتاح مسجد الظاهر هذا تم فی ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ حسبما ذكر ابن تغری بردی ، وإن استكمال المسجد كله تم سنة ٦٧١هـ حسبما ذكر ابن دقماق .

هذا الجامع كان واقعا على الأرض الواقعة على شارع القصر العینی تجاه معهد ومستشفى الكلب من الجهة الشرقية قرب فم الخلیج ، وقد اندثر حاليا ، انظر : محمد رمزی ، تعليقه على النجوم ، ج٧ ، ص ١٥٠ .

وقال «القلقشندى» عن منشأة المهرانى أيضا «ويبدو فى آخر الفسطاق وهذه الجزيرة (يقصد الروضة) على فوهة خليج القاهرة حيث السد الذى يفتح عند وفاء النيل مكان كالجزيرة يعرف بمنشأة المهرانى، وكان كوما يحرق فيه الأجر يعرف بالكوم الأحمر عده القضاء فى جملة كيما الفسطاق، وقال صاحب ايقاظ المتغفل وأول من ابتدأ العمارة بلبان المهرانى فى الدولة الظاهرية ببيرس فنسبت المنشأة هذه إليه» (١).

ومن خلال ما ذكر نقول أن منشأة المهرانى تشغل اليوم المنطقة التى تحده اليوم من الغرب بسيالة الروضة ومن الجنوب بميدان ومنتزه فم الخليج للذين حلا محل فم الخليج المصرى، والحد الشرقى يتمثل فى خط يصل بين شارع العيون جنوبا حتى أول شارع المنيرة شمالا، والحد الجنوبى يتمثل فى شارع بستان الفاضل وما فى امتداده أى شارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) حتى كوبرى القصر العينى (٢) (كوبرى محمد على سابقا) (شكل ٩).

وكانت منشية المهرانى عامرة عبارة كبيرة فى العصر المملوكى، وكانت تحوى مساجد ومدارس كثيرة (٣)، وحمامات عامرة مثل حمام ابن أبى الجوافر المتوفى ٦٥٧هـ (٤)، وخانقاوات مثل خانقاة ارسلان الدوادر المتوفى ٧١٧هـ / ١٣١٧م (٥)، وكان للسultan الملك المؤيد شيخ معصرة فى منشأة المهرانى لاستخلاص السكر والعسل (٦).

وكانت منشية المهرانى تتعرض أحيانا للخراب فى المحن والأزمات التى حلت بمصر نتيجة نقص النيل وطغيان الرمال على السواحل بالإضافة للفتن والقتال التى قامت بها طوائف الممالىك، ومن أكبر هذه الأزمات الأزمة التى حدثت سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م وما تلاها، ولكن

(١) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، سج الاعشى فى صناعة الانشا، (ط دار الكتب المصرية، ١٩١٤م) ج٣، ص ٣٤٠.

(٢) أطلقت مصلحة التنظيم اسم منشأة المهرانى على شارع متعامد على شارع قدادار شرقى ميدان التحرير وهذا الموقع بعيد عن الموقع الأصيل لمنشأة المهرانى. ولكننا نجد شارع باسم سكة المنشأة متفرع من شارع القصر العينى يتفق وموقع منشأة المهرانى. انظر أيضا: محمد رمزى، تعليقه على النجوم، ج٩، ص ١٨٤.

(٣) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٩٠، ١١٩، ١٢٠.

(٤) نفسه ص ١٠٤، ١٠٥، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٨٥، ابن الصيرفى (الخطيب الجوهري على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشى، ج٢، (ط دار الكتب المصرية، ١٩٧١م)، ص ٤٧٩.

(٥) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٤٢٣، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٢، ص ٣٠١.

(٦) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ المحفوظة بالأوقاف، نشر فهمى عبد العليم، العمارة الإسلامية بمصر فى عصر السلطان المؤيد شيخ، دكتوراة «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٨) ص ٢٠٤-٢٠٥. سطور ٢٣٦-٢٤٠.

سرعان ما عاد العمران إليها مرة أخرى وخاصة لما قام الملك المؤيد شيخ بحفر النيل ، ومن أجل حماية المنشية عمل المؤيد جسراً بطولها عند الحفر^(١) .

ومن الأعمال العظيمة بالمنشأة ما قام به الأمير چانى بك نائب جده الدوادار^(٢) ، فقد أنشأ بستانا عظيما كان محله كوم وبركة ، وقد انتهى منه بعد شهرين فقط وكان ذلك فى شهر ربيع الأول ٨٦٣هـ ، وقد كان كوما خبيثا تتم به بعض الأمراض الاجتماعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت من استعماله لأموال الفساد وشرب المسكرات فصار بستانا نزها^(٣) ، وفى سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢ أكمل زراعة البستان وجعل به بحيرة ، وكان هذا البستان يقع شمال منشأة المهرانى وكانت مساحته ١٥٠ فدانا^(٤) ، وكان له باب قريب من خط قناطر السباع (السيدة زينب حاليا) وياب آخر على النيل تجاه الروضة ، وعمل چانى بك بطرف بستانه على النيل قبتين واحدة كبيرة والأخرى صغيرة ، وعمل رصييفا على النيل ، وانزل بالقبتين جماعة من صوفية الأعاجم وأجرى عليهم الرواتب الهائلة وأوقف عليهم أوقافا كثيرة ، وقد أقام چانى بك احتفالات كبيرة ببستانه وقبته^(٥) ، وقد استخدمت تلك القبتان كمتنزه عظيم بقية العصر المملوكى وطوال العصر العثمانى^(٦) .

وعمرت المنشأة عمارة عظيمة وهوت إليها القلوب والأفئدة للتنزه والاستمتاع بأوقات حسنة خصوصا بعد أن أنشأ بها الأمير شهاب الدين أحمد بن العيني^(٧) قصرا عظيما يطل

(١) السخاوى (محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (نشر مكتبة القدسي بمصر ، ١٩٥٣) ، ج٣ ، ص ٣١ .

(٢) هذا الأمير من كبار أمراء دولة المماليك الجراكسة ، وقد تولى وظائف هامة فى الدولة ، وقد قتل سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢ . انظر ترجمته فى : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ٢٧٧ ، ٣٢٠-٣٢٣ ، المنهل الصافى ، ج٤ ، ص ٢٤٣-٢٤٨ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٤ ، ص ٥٧ .

(٣) ابن تغرى بردى ، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، (نشر وليم يوبر ، ط كاليفورنيا ، ١٩٣٠) ، ج٢ ، ص ٣٢١ .

(٤) يساوى الفدان الآن ٤٢٠٠ متر مربع .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢٧٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، حوادث الدهور ، ج٣ ، ص ٥٦٦-٥٦٩ ، ص ٧٦٦-٧٦٨ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٠٦ ، ٤٤٩ .

(٦) Abouseif, (D), The Coppa, An Aristocratic Type of Zawiya An Isl XIX IFAO (1983) (٦) p. 2 - 3.

(٧) هو أحمد بن عبد الرحيم بن فاضل القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفى ، تولى عدة وظائف هامة فى الدولة ، ورقى لمنصب أمير مائة مقدم ألف ، وكان له شأن كبير أيام السلطان خشقدم ولكنه تعرض لمحن وشدائد أيام قايتباى وقانصوه أبو سعيد ، وقد توفى بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م . انظر ترجمة كاملة فى : ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٧٩ ، السخاوى ، الضوء اللامع ج١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٥٧-٥٨ .

على النيل بجوار بستان چانى بك بجوار القبتين فى سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م^(١)، وكان هذا القصر والبساتين حوله وقتا چانى بك متزهات عظيمة للسلطين والولاة والأمراء والناس جميعا فى العصرين المملوكى والعثمانى^(٢).

وقد غلب اسم قصر العينى على المنطقة منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وكان السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦م) كثير التنزه بالمنطقة وقد أمر باصلاح جامع يسمى جامع الرحمة ببستان نائب جدة^(٣).

وفى العصر العثمانى كان القصر العينى محطة استقبال لولاة مصر العثمانية، وعمرت قبتا چانى بك طول العصر، واستخدمت كتكية عظيمة لطائفة المتصوفة البكتاشية^(٤)، وكانت منطقة القصر العينى من المناطق المفضلة لسكنى العديد من الأمراء ذوى النفوذ فى القرن ١١هـ / ١٧م وكانوا يدعون الباشا إلى هناك لحضور حفلات باذخة، وقرب نهاية القرن كان يأتى للإقامة هناك الباشوات المعزلون أو الحديثو التعيين بدلا من الإقامة داخل القاهرة^(٥).

وقد أجريت على القصر العينى عدة عمارات ففى سنة ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م أنشأ والى مصر إبراهيم باشا كتبخدا الوزير^(٦) قصرا فى الركن الجنوبى، كما ضم إليه والى عبد الرحمن باشا^(٧) قصرا آخر فى سنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م^(٨).

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٥٤١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٤٩.

(٢) انظر ما يلى ص ٤٥٩. (٣) السخاوى، الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٠٨.

(٤) التكية مكان خلوة الصوفية الاعجام ويسمون الدراويش المتفرغين للعبادة، وكانت تجرى عليهم الأرزاق بما يلزمهم من مأكى ومشرب وملبس من أوقاف خاصة، وقد حلت التكايا فى العصر العثمانى محل الخانقاوات المملوكية، وفقدت التكايا فى العصر العثمانى الغرض الدراسى الذى كانت تقوم به الخانقاوات المملوكية، وتكاد تكون اختصت بالعاطلين فقط. انظر: سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة، ١٩٨٣، ج٥) ص ٤٩، ٩٦، دولت عبد الله، معاهد تزكية النفوس، (القاهرة، سنة ١٩٨٠م).

(٥) اندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٦) تولى إبراهيم باشا فى الفترة من محرم ١٠٨١هـ حتى آخر جمادى الأولى ١٠٨٣هـ (يونيه ١٦٧٠ - سبتمبر ١٦٧٢م) انظر بالتفصيل: أحمد شلبى (أحمد شلبى بن عبد الغنى الحفنى المصرى، ت ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م)، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، (نشر مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨م)، ص ١٧٠ - ١٧٢. ابن الوكيل (يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل)، تحفة الأحياب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، (مخطوط بمكتبة رفاعه بسوهاج، تحت رقم ٢٨ تاريخ) ص ٢١١ - ٢١٤.

(٧) تولى عبد الرحمن باشا من ربيع الثانى ١٠٨٧ حتى عزل فى غاية شعبان سنة ١٠٩١هـ (١٦٧٦ -

١٦٨٠م). انظر بالتفصيل: أحمد شلبى، أوضح الاشارات، ص ١٧٥ - ١٧٧، ابن الوكيل، تحفة

الاحباب، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٨) حسن الباشا، القصر العينى تاريخ وأثر، (مذكرة)، ص ٥.

كما كانت المنطقة تحتوي فى النصف الثانى فى القرن ١١هـ / ١٧ على ثلاثة وأربعين مقعدا أو منظره تطل على النيل كما ذكر الرحالة التركى أوليا شلى (١).

وقد ذكر على مبارك فى خطه أن تكية القصر العينى فيها قبتان مفروشتان بالرخام والترابيع (وهما قبتا جاني بك)، وقد ألحق حسين قبودان بإحدى القبتين سيلا سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م وكان للتكية فدانان فيهما النخيل والأشجار، وفى سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٧م عمر التكية حسن باشا فبنى أسوارها وأسوار الغيطان الموقوفة عليها المحيطة بها وأنشأ بها صهريجا وأنشأ بجانبها مصلى (٢).

وفى أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣ - ١٢١٦هـ / ١٧٩٨ - ١٨٠١م) حولوا القصر إلى مستشفى وزودوه بالحصون، ثم أقام محمد على باشا قشلاق للجند فى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٢م ومبنيين بعد ذلك سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م وجعل كل ذلك مستشفى.

وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية للموقع نجد أن منشية المهراتى عبارة عن أراضى زراعية وبساتين يتوسطها القصر العينى وبيوت قليلة حوله مثل بيت مصطفى بك شمالا وبيت محمد كاشف الأرنؤوط جنوباً.

(٢) خط منشأة الكتبة :

عمر هذا الخط أيام الناصر محمد بن قلاوون، فقد كان الناصر قد أنشأ زريبة (٣) له قبل الجامع الطيرسى (٤) فى أرض بستان (١) نفسه.

(٢) الخطط التوفيقية (ط ١٩٨٧م)، ج٢، ص ١٦٢-١٦٣، ملحوظة : استعملت هذه الطبعة الجديدة من الخطط التوفيقية من الأجزاء الثمانية الأولى وطبعة بولاق القديمة (١٣٠٤ - ١٣٠٦هـ) فى باقى الأجزاء.

(٣) عمر الناصر محمد الزريبة قبل الجامع الطيرسى وحفر لأجل هذه الزريبة البركة التى عرفت باسم البركة الناصرية ليستعمل طينها فى بناء الزريبة، وأنشأ فوق هذه الزريبة دار وكالة ورعيين عظيمين جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس، وأنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمامين أحدهما يرسم الرجال والآخر يرسم النساء. انظر : المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣٢، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣٢، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ص ٢٢٦، ويمثل موقع الزريبة اليوم المنطقة الواقعة على النيل بجاردن سبى المحصورة بين شارع ورشة التبك جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزة الذى به فندق شيرد شمالا.

(٤) جامع الطيرسى ذكره المقرئى فقال « عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طبرس الخازندار نقيب الجيوش بشاطئ النيل فى أرض بستان الخشاب وعمر بجواره خانقاه فى جمادى الأولى سنة ٧٠٧هـ، وكان من أحسن متزهات مصر وأعمارها، وقد خرب ما حوله من الحوادث والمحن بعد سنة ٨٠٦هـ بعد ما كانت العمارة متصلة إلى الجامع الجديد بمصر ومنه إلى جامع الخطيرى ببولاق، ويركب الناس المراكب للفرجة =

الخشّاب^(١)، فعمر الأمراء والكتاب الدور الجليلة هناك فقد عمر المكين إبراهيم بن قزوينه ناظر الجيش جنوب زريبة الناصر محمد دار جليلة وعمر أيضا صلاح الدين الكمال والصاحب أمين الدين عبدالله بن الغنام وعدة من الكتاب فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب^(٢).

وظلت منشأة الكتبة عامرة حتى خربت ضمن ما خرب من خطط القاهرة في الأزمان والمحن التي حدثت ابتداء من سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م^(٣)، إلا أن تلك المحن لم تستمر طويلا فسرعان ما عاد للقاهرة رونقها بعد ذلك وشمل التعمير أرجاءها وعمر خط منشأة الكتبة من ضمن الخطط التي كانت على النيل عندما حفره المؤيد شيخ ما بين الجامع الناصري وبين جامع الخطيرى سنة ٨١٨هـ^(٤).

وفي العصر العثماني تحولت منشأة الكتبة للنشاط الزراعي فحفلت بالحقول والبساتين، وكانت من متزهات القاهرة^(٥).

= من هذا الجامع إلى الجامعين المذكورين مصعدين ومنحدرين في النيل، ويجتمع بهذا الجامع الناس للترهة فتمر به أوقات ومسررات لا يمكن وصفها، وقد خرب هذا الجامع واقفر من الساكن وصار مخوفا بعد ما كان ملهى وملعبا، الخطط، ج٢، ص ٣٠٤. وقد حقق المرحوم الأستاذ محمد رمزي موقع هذا الجامع وقال أنه شاهد بنفسه الخانقاة التي كانت بجواره والتي كانت معروفة باسم جامع الأربعين، وهذا الموقع تشغله الآن عمارة سكنية تقع بين فندق سميراميس وجامع عمر مكرم، في شارع كمال الدين صلاح (الشيخ بركات سابقا)، وهذا الموقع موقع على خريطة القاهرة للأثار الإسلامية (لوحة ١) قبل هدمه باسم جامع الشيخ منصور وبركات. انظر: تعليق محمد رمزي على النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٨.

(١) عن بستان الخشّاب، انظر مايلي، ص ٥١.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٣٢.

(٣) هذه المحن والحوادث التي مرت بها مصر ابتداء من سنة ٨٠٦هـ، وكان لها تأثير كبير على القاهرة وأدت إلى خراب بعض أحيائها وخططها، كان مردها إلى انخفاض النيل بدرجة كبيرة في ذلك الوقت مما أدى إلى حدوث أزمات اقتصادية كبيرة وحدوث غلاء في الأسعار، وصاحب ذلك أوبئة أثرت على خفض ثلث سكان القاهرة، كما أن النيل انحسر وتقلص نحو الغرب فأنكشفت أراضي كثيرة وعلا الرمل على شاطئه الشرقي وبعد الماء عن القاهرة فتأثرت الخطط التي كانت واقعة على النيل، من الأسباب الهامة لتلك الأزمات أيضا ازدياد الفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية بين طوائف المماليك، إلى جانب الفساد السياسي والأخلاقي الذي تمثل بصفة كبيرة في اغتصاب الأملاك والأوقاف وكان المغتصبون يهدمون تلك المباني والدور ويبيعون انقاضها مثلما حدث للرباع والدور والوكائل التي كانت بجوار جامع الطيرسي بخط زريبة قوصون وامتد إلى جميع الدور والمناظر الممتدة على النيل وصار الساحل من منشأة المهراني إلى قرب بولاق كيمانا موحشة وخرائب مقفرة، بالإضافة لذلك كانت الدولة التيمورية تهدد المماليك، وعانت الشام منهم معاناة كبيرة، وكانت هذه المحن والأزمات هي التي دفعت المقريزي لكتابة كتابه «إغاثة الأمة في كشف الغمة». انظر: المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٣١، السلوك، ج٣، ص ١١٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص ١٥٢.

(٤) انظر ما سبق، ص ٢٥.

(٥) انظر خريطة نيور للقاهرة، وكذلك خريطة الحملة الفرنسية.

وعن موقع منشأة الكتبة الآن أرى أنها كانت واقعة خلف زريبة الناصر محمد التي كانت تقع خلف جامع الطيرسى الذى كان يقع بجوار جامع عمر مكرم الآن، كما كانت منشأة الكتبة متصلة بمنشأة المهرانى من جانبها الجنوبي.

فعلى ذلك فموقعها يشغله اليوم الجزء الجنوبي الشرقى من حى جاردن سيتى وجزء من حى المنيرة فى المنطقة المحصورة فيما بين شارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) وشارع بستان الفاضل الذى فى امتداده جنوبا، وبين شارع عائشة التيمورية (شارع الوالدة باشا سابقا) وما فى امتداده شمالا (شكل ١٠).

(٤) خط موردة البلاد والميدان السلطانى :

يلى هذا الخط خط منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة، وقد ذكره المقرئى فى عدة مواضع (١)، وأن أرض هذا الخط كانت جزءا من بستان الخشاب (٢)، وكان فى الخليج الناصرى الذى حفره الناصر محمد سنة ٧٢٥هـ يقع فى موردة البلاط (٣) كما كان الميدان الناصرى السلطانى الذى أنشأه أيضا الناصر محمد سنة ٧١٨هـ من جملة خط موردة البلاط (٤).

(١) الخطط، ج٢، ص ١٤٥، ١٤٨، ٤٣٢.

(٢) بستان الخشاب كان بستانا كبيرا من الدولة الأيوبية، ثم قسم لعدة خطط وبياتين فى العصر المملوكى، وكان يشغل مساحة كبيرة من الأرض يمكن تحديدها بالحدود الآتية: كان الحد الغربى تمثلا فى نهر النيل والحد الجنوبى يبدأ من كوبرى القصر العينى (محمد على سابقا) وشارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) وشارع بستان الفاضل وما فى امتداده حتى مقام المواردى بشارع الخليج المصرى حيث كانت هناك قنطرة السد، وكان الحد الشرقى يسير بعضه مع الخليج وبعضه الآخر فى اتجاه مستقيم إلى موضع قصر عابدين حاليا، والحد الشمالى يتمثل فى أحد الشوارع التى تصل بين ميدان عابدين وميدان التحرير.

وكانت أرض بستان الخشاب مقسمة فى العصر المملوكى إلى قسمين، القسم الشرقى منهما هو الواقع بين شارع المنيرة وشارع الخليج المصرى (بورسعيد) وكان يعرف بالمريس نسبة إلى أن كثيرا من السودان المريس والنوبة كانوا يسكنون هذا المكان فعرف بهم وكانوا يصنعون به المزر وهو نوع من البوظة يسمى المريس، وكان المريس فى غاية العمارة وكان يرتاده أهل الخلاعة وطالبي المتعة والمتزهين. أما القسم الغربى الذى بين شارع المنيرة والنيل فكان يضم خط موردة البلاط والميدان السلطانى وأول الخليج الناصرى. انظر: المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٣٠٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٤٤، ج٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ج٩، ص ٨١، ١٩٦، حاشية (١).

(٣) الخطط، ج٢، ص ١٤٥، كان فى الخليج الناصرى يقع فى النقطة التى يتقابل فيها اليوم عائشة التيمورية بشارع كورنيش النيل بجاردن سيتى بالقاهرة.

(٤) عن الميدان السلطانى انظر ما يلى، ص ٢٦٤.

ومما ذكره «المقريزى» يتبين لى أن خط موردة البلاط على النيل كان مقسما عدة أرفصة متجاورة يختص كل منها بنوع معين من البضاعة وهى موردة البلاط وموردة الملح^(١) وموردة الجبس^(٢) وغير ذلك .

وموقع خط موردة البلاط والميدان السلطانى يشغله الآن جزء من حى جاردن سيتى على امتداد النيل من شارع عائشة التيمورية (الوالدة باشا سابقا) جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزة شمالا (شكل ١١) .

وقد عمر هذا الخط عمارة كبيرة فى العصر المملوكى ولا سيما فى فترة حكم الناصر محمد حيث كثر العمران والبناء على النيل فاتصلت المباني من أثر النبى جنوبا حتى بولاق شمالا . وبالرغم من بعض المحن التى حلت بتلك الخطط التى على النيل فى بعض فترات فى العصر المملوكى ، إلا أن العمران سرعان ما يعود إليها مثلما حدث أيام الملك المؤيد شيخ وما تلاه .

وقد غلب على خط موردة البلاط والميدان السلطانى النشاط الزراعى فى العصر العثمانى حيث وقعت تلك المنطقة على خريطة نيبور الذى زار مصر سنة ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م ، وكذلك فى خريطة الحملة الفرنسية وكانت عبارة عن حقول وبساتين وقد تحول جزء منها إلى ميدان يسمى ميدان النشاب^(٣) الذى أنشئ فى العصر العثمانى بدلا من الميدان السلطانى الذى كان يقع غريبه والذى كان قد تحول للزراعة لأن أرضه كانت معرضة لطغيان النيل عليها ، وقد تعرضت الجنائين والبساتين بتلك المنطقة ، وكذلك بساتين مصر القديمة وغيرها التخريب على يد الحملة الفرنسية حيث قطعوا أشجارها ونخلها^(٤) .

(٥) خط زريبة قوصون:

يلى هذا الخط خط موردة البلاط والميدان السلطانى ، وأرضه نتجت عن طرح البحر الخامس سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م ، وقد اتصلت تلك الأرض بأرض اللوق ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد خرب ميدان الملك الظاهر بيبرس باللوق^(٥) وجعله بستانا ثم وهب

(١) ذكر المقريزى أن موقع الميدان السلطانى بموردة الملح . الخطط ، ج٢ ، ص ١٣١ .

(٢) ذكر المقريزى أن الميدان السلطانى على النيل ويعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس . الخطط ، ج٢ ، ص ١١٤ .

كما ذكر أن موردة البلاط تجاور موردة الجبس . الخطط ، ج٢ ، ص ١١٧ .

(٣) سعى بهذا الاسم لاستخدامه فى تدريب الفرق العسكرية للرعى بالنشاب (السهام) .

(٤) الجبرتى (عبد الرحمن بن حسن ، ت ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م) ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، (ط دار

الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ) ، ج٢ ، ص ٤٣٨ .

(٥) عن الميدان الظاهرى انظر ما يلى ، ص ٣٧٨ .

البستان للأمير قوصون^(١) فأنشأ قدامه على النيل زريبة^(٢)، فعمر الناس هناك حول الزريبة حتى اتصلت العمارة بموردة البلاط والميدان السلطاني من الجهة الجنوبية، واتصلت بحكر ابن الأثير وخط فم الخور وبولاق من الجهة الشمالية وبأرض اللوق من الشرق، وعمّر هناك حمام وسوق كبير وطواحين وعدة مساكن اتصلت باللوق، وأصبحت الخطط التي على طول النيل متصلة بالعمارة بدورها ومناظرها ومساجدها وخانقاواتها ومن وراءها الأزقة والشوارع والدروب حتى قاربت الخليج^(٣).

وفي العصر العثماني تحول هذا الخط إلى بساتين متجاورة كما ورد في خريطة نيبور والحملة الفرنسية.

وعن موقع خط زريبة قوصون نجد مشغولا اليوم بالمنطقة المحصورة بين ميدان سيمون بوليفار (قصر الدويارة سابقا) بجاردن سيتي وبين ميدان عبد المنعم رياض، وكانت الزريبة نفسها تقع في موقع المتحف المصري بميدان التحرير (شكل ١٢).

(٦) خط فم الخور وحكر ابن الأثير:

يلى هذا الخط خط زريبة قوصون، وأرضه ناتج طرح البحر السادس والسابع، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى خليج فم الخور الذي أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ^(٤)، وكان فمه على النيل بميدان عبد المنعم رياض الآن، وكان مساره بأول شارع رمسيس، ونتيجة لذلك امتد العمران على جانبيه وبنيت فيه الدور والمناظر الجليلة الوصف التي تشرف على النيل ومن وراءها البساتين ويفصل بينهما شارع مسلوك يؤدي إلى بولاق،

(١) الأمير قوصون، كان من أعظم أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون وأقرب الأمراء المقربين إليه، كان ساقبه ثم ترقى بسرعة كبيرة حتى بلغ أعلى رتبة من رتبة المالك وهي أمير مائة مقدم ألف، وكان له نفوذ كبير وتحكم في الدولة، وعقب وفاة الناصر محمد في ذى الحجة ٧٤١هـ دخل قوصون في صراع مع بعض الأمراء فكانت نهايته القتل سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م وكان محبا للعمارة وله من الآثار بالقاهرة جامعة الذي يعرف اليوم بجامعة قيسون (أثر رقم ٢٠٢) بشارع محمد على ووكالة بالجمالية (أثر رقم ١١) وكان له خانقاة وجامع باق منه منذته (أثر رقم ٢٩٠) بقرافة السيوطي وكان له دار واصطبل كبير بالميلة بجوار مدرسة السلطان حسن، وكان له حكر بجوار قناطر السباع بالسيدة زينب حاليا. عنه بالتفصيل انظر: المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٧٢، ٩٣، ١١٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٥، ٤٢٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٩٥، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٧، ج١٠، ص ٤٥، ٤٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، (ط ١٩٨٦)، ج٥، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٩٨. على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ص ٢٢٥، ٢٥٤.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٤٤. وعنه بالتفصيل انظر ما يلي، ص ٣١٠.

وقد انشئ هناك حمام وجامع وسوق وسكن ذلك الخط الأكبر من الوزراء والأعيان وكان به من الدور العظيمة ما يفوق الوصف^(١). وكان للسلاطين والأمراء فى العصر المملوكى هناك بسايتين مثمرة بكافة أنواع الفواكه والثمار مثل بستان السلطان برسباى^(٢) وغيره.

أما حكر ابن الأثير فينسب إلى القاضى علاء الدين بن الأثير الذى كان يشغل وظيفة كاتب السر فى زمن السلطان محمد بن قلاوون، وكان قد بنى داراله على النيل وبنى الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير^(٣).

وكان هذا الحكر يشغل الجزء الجنوبي من خط فم الخور وقد اتصلت العمارة من حكر ابن الأثير إلى خط فم الخور ومن خط فم الخور إلى بولاق^(٤)، وفى العصر العثمانى حفلت المنطقة ببساتين الأمراء الكبار ومناظرهم الجميلة^(٥).

ويشغل خط فم الخور الآن المنطقة الواقعة بين ميدان عبد المنعم رياض جنوبا حتى اتصالها ببولاق بالقرب من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) شمالا، وكان النيل يحدها غربا ويمثل شارع رمسيس حدها الشرقى، ويشغل مكان حكر ابن الأثير الآن المنطقة التى تحد غربا بشارع ساحل الغلال الموصل الآن بين شرق فندق هيلتون رمسيس وبين مبنى الإذاعة والتليفزيون حيث كان النيل يجرى فى ذلك المسار أيام الناصر محمد^(٦)، وكان يحده جنوبا وشرقا شارع الجلاء (الترعة البولاقية سابقا) (شكل ١٣).

(٧) بولاق :

تلى بولاق خط فم الخور وحكر ابن الأثير، وقد تكونت نتيجة طروحات النيل المتوالية وبصفة خاصة الطرخ الخامس سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وكانت مثل تلك الأراضى فى مبدأها تكون لينة وغير متماسكة، وكانت عبارة عن هيئة جزر صغيرة تغطيها الرمال وتحيط بها البرك وتنمو بها الحلفاء والبوص ومع الزمن تتصل ببعض حتى تتكون كأرض متصلة تحف بعد ذلك وتصلب وتكون صالحة للبناء عليها أو الزراعة بها، وهكذا تكونت أرض بولاق واتصلت من

(١) نفسه، ص ١٣١.

(٢) كتاب وقف السلطان برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف، ص ١٣٥ - ١٣٦، أحمد دراج، حجة وقف الأشرف برسباى، نشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، (القاهرة، سنة ١٩٦٣)، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣١.

(٤) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣١. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٥) انظر على سبيل المثال كتاب وقف الأمير عثمان كتحدا رقم ٢٢١٥ أوقاف، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٦) محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٨٤.

جنوبها وجنوبها الشرقي بأرض اللوق، ومن شمالها بجزيرة القبيل (أرض شبرا وروض الفرخ الآن) ومن شرقيها المقس (الأزبكية الآن)^(١). ومع الزمن كانت تظهر أمام بولاق جزر أخرى أما تتصل بها أو تتصل بالجزيرة الوسطى أمامها، أو تختفى بعد ذلك، ومن أمثلة ذلك الجزيرة التي ظهرت سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م وأغلب الظن كما يفهم من نص «ابن إياس» أنها اتصلت ببولاق بعد ذلك^(٢).

استغلت الأرض بولاق بعد تكوينها مباشرة كملاعب وميادين لتدريب المماليك السلطانية للرمى بالنشاب في تلال الرمال هناك، ثم بدأ العمران فيها من سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م في النهضة العمرانية العظيمة بمصر التي قادها الناصر محمد بن قلاوون، وتسبق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامه في البناء عليها بالإضافة إلى الزراعة وغرس البساتين المثمرة بها^(٣). وتردد الناس عليها للنزهة وصارت من أجمل وأعظم متنزهات مصر واعتبرها المؤرخ «ابن ظهيرة» من محاسن وفضائل مصر التي اختصت بها مصر والقاهرة، وما شاركها فيها غيرها بما تضم من قصور ومناظر ومسكن جليلة ممتدة على شاطئ النيل^(٤)، وقد كانت قد شهدت نهضة عمرانية كبيرة بها منذ فترة حكم المؤيد شيخ بعد الأزمات والمحن التي حلت بالقاهرة منذ سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م.

وتبدو بولاق كما وردت في خريطة الحملة الفرنسية (شكل ١٤) كمدينة صغيرة (ضاحية) منفصلة عن القاهرة، وتبدو على هيئة مثلث ذو قاعدة دائرية على النيل ويمتد لمسافة ٢١٠٠ متر ارتفاع المثلث ٦٠٠ متر، ويفصلها عن القاهرة سهل عرضه ١٢٠٠ متر، وعدد من البساتين، وقد قدر عدد سكانها بأربع وعشرين ألف نسمة، وكانت ميناء بولاق من أعظم موانئ مصر لما لها من أهمية كبيرة في انتعاش تجارة مصر الداخلية والخارجية، وقد سجل الفرنسيون بها ٢٤ مسجدا وعددا كبيرا من الوكالات من بينها ٣٠ وكالة رئيسية أغلبها أكثر اتساعا وأجمل من وكالات القاهرة^(٥).

وقد اتصلت بولاق بأحياء القاهرة بواسطة طريقين احدهما يربطها بالمقس وكانت تظلمه الأشجار (شارع السبتية الآن) والآخر يصلها بالأزبكية وهو الذي قام المسيو لوبير أحد مهندسي الطرق بالحملة الفرنسية باصلاحه وغرس الأشجار على جانبيه وهو الذي يمثله الآن شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا).

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٠٧. (٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٠-١١١.

(٣) القرظي، الخطط، ج٢، ص ١٣١.

(٤) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ٢٠٢.

(٥) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة القاهرة، ترجمة وتحقيق أمين فؤاد سيد، (نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة،

١٩٨٨م)، ص ٣٤٢.

وذكر المرحوم «محمد رمزي» أيضا أن بولاق قد وقعت على خرائط القاهرة المرسومة حتى سنة ١٨٥٨م كبلدة صغيرة واقعة على النيل كانت مبانيها محصورة بين شارع السبتية من الشمال ومن الجنوب بشارع اصطبلات الطرق ومن الشرق شوارع العليمى وعلوة الحجاج وتل نصر ووابور النور، وكانت الأرض التي بين بولاق القديمة وبين شارع رمسيس كلها أرضا زراعية وبساتين ولم تحدث فيها المباني إلا فى زمن الخديوى إسماعيل (١٢٨٠ - ١٢٩٦هـ/ ١٨٦٣ - ١٨٧٩م) ففى ذلك الوقت اخذت بولاق تتسع فى العمارة حتى اتصلت مبانيها بالقاهرة وأصبحت بولاق قسما إداريا من اقسامها (١).

(٨) جزيرة الفييل :

جزيرة الفييل ظهرت فى زمن الدولة الأيوبية نتيجة غرق مركب كبير يسمى الفييل فى نهر النيل ، فترك فى مكانه ، فربا عليه الرمل ، وأخذ النيل ينحسر حوله فصارت جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب فيما بين منية السيرج وأرض الطبالة (الفجالة حاليا) سماها الناس جزيرة الفييل ، وظلت تنمو وتتسع كل عام بما يضاف إليها من الطمى الذى حمله ماء النيل ، وقد زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ - ٥٨٩هـ / ١١٧٢ - ١١٩٣م) فوقها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه ، وكثرت اطيانها بانحسار النيل عنها فى كل عام (٢).

وفى سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١ فى أثناء سلطنة الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٦ - ١٢٨٧م) ازداد انحسار النيل لأرض اتصلت بأرض الجزيرة شمالا بمنية السيرج وجنوبا بالمقس (الأزبكية) فأوقفت تلك الأراض الزائدة على المارستان المنصورى ، وغرس الناس بها الغروس وصارت بساتين وسكن كثير من المزارعين بها (٣).

وفى مدة سلطنة الناصر محمد بن قلاوون انحسر النيل من جانب المقس الغربى وصار ما هنالك رمالا متصله من بحريها بجزيرة الفييل ومن قبلها بأراضى اللوق ، وحينئذ عمرت بولاق خارج المقس ، وأنشأوا بجزيرة الفييل ابساتين والقصور والدور حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة وحكر على ما كان فيها وقفا على مدرسة صلاح الدين وما كان من وقف المارستان وغرس ذلك كله بساتين فزادت عن مائة وخمسين بستانا إلى سنة وفاة الملك الناصر محمد

(١) محمد رمزي، تعليقه على النجوم، ج٧، ص ٣٠٨، وعن بولاق بالتفصيل، انظر: Hanna, (N), An Urban History of Bulaq in the Mamlak and Ottoman Periods, Supp. Aux Annales Islamologiques - Chier N.3, Le Cairo IFAO, 1983.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٥.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٥.

(٧٤١هـ / ١٣٤٠م) بعدما كانت عشرين، ونصب فيها سوق كبير وبنى فيها الناس الدور الكثيرة الفخمة وجامعاً بفقيت قرية كبيرة وما زالت تنمو حتى اتصلت عمارتها بمنية السبرج^(١).

وكان الجامع الرئيسي لجزيرة الفيل هو جامع الفخر^(٢) ناظر الجيش فى زمن الناصر محمد بن قلاوون.

وقد تعرضت جزيرة الفيل فترة للمحن والأزمات التى مرت بمصر فترة وعبر عنها «المقريزى» بقوله «وأما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا من حسن المنظر وكثرة المتحصل إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرّب كثير منها لغلو العلفوفات من الفول والتين وشدة ظلم الدولة، وتعطل معظم سوقها وفيها إلى الآن بقية صالحة»^(٣).

ولكن جزيرة الفيل حظيت بالعناية والرعاية بعد تلك المحن وانتشرت البساتين بها مرة أخرى، وصارت من أعظم متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، ففى العصر المملوكى كانت تقام ببساتينها الأمسيات والاحتفالات وجلسات الطرب والأدب^(٤)، وكان

(١) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٨٥-١٨٦، السلوك، ج٢، ص ٥٣٩، ابن دقماق، الانتصار، ج٥، ص ٤٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٤٧، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٧.

(٢) الفخر هو أحد المسألة واسمة فخر الدين محمد بن فضل الله القاضى ناظر الجيش المعروف بالفخر، كان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه، وقد تولى أعلى الوظائف الكتابية فى زمن الناصر محمد بن قلاوون، وكان حسن السيرة محبا لأعمال الخير فقد بنى الكثير من المنشآت الاجتماعية، فقد بنى بمصر عدة أحواض ماء للسييل وبنى مارستانا بالرملة بالشام ومارستانا ببليس، بالإضافة لبناء قنطرة على فم الخليج الناصرى المجاور للميدان السلطانى بموردة الجيس وقنطرة أخرى على خليج مجاور له. بالإضافة لذلك فقد بنى ثلاثة جوامع عظيمة هى جامعة هذا بجزيرة الفيل والثانى ببلاق والثالث بجزيرة الروضة (جامع قايتباى حاليا). وقد توفى الفخر فى رابع عشر من رجب ٧٣٢هـ وله من العمر ما ينيف على سبعين عاما. انظر: المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٣١١.

وجامع الفخر بجزيرة الفيل هو الآن المعروف بجامع سيدى فرج المجذوب، وقد جدده محمد بك طاهر ابن أحمد باشا طاهر فى سنة ١٢١٨هـ بشارع جزيرة بدران وتطل واجهته الرئيسية على شارع جنينة المناخ بينما تطل واجهته الجانبية على عطفة سيدى فرج المجذوب. انظر: محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٢٠١.

شاهنده فهمى، جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، دكتوراة «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ٢٨٧.

(٣) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٨٦.

(٤) على سبيل المثال كان لابن باباى العواد أحد ندماء الملك المؤيد شيخ ومغنيه بستان بجزيرة الفيل، وقد وصف المؤرخون ابن باباى بأنه كان اعجوبة زمانه فى ضرب العود والغناء. انظر: المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٤٧٦، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج١، ص ٥٨.

يتردد عليها عليه القوم كالقضاة والعلماء^(١) والجدير بالذكر أنه كان للسلطان المؤيد شيخ بستان بخط جزيرة الفيل به مختلف الأشجار من بلح وجميز ونارنج وتين وغير ذلك بالإضافة إلى منظره وسواقي^(٢)، وكان الأمير أزيك بن ططغ الاتابكي يملك بستانا بجزيرة الفيل غرس به النخل والمشمش والتوت والليمون والنارنج والأترج والسنت و غير ذلك مما دار عليه من السياج وما به من الآلات والسواقي^(٣).

وكانت الدور بجزيرة الفيل على درجة عظيمة من العمارة والزخرفة، وكانت مسكنا للأمرء الكبار والوزراء^(٤).

وظلت الجزيرة الفيل حافلة بالبساتين طوال العصر العثماني وظلت محتفظة بأسمها كما يتضح لنا من كتاب وقف الأمير عثمان كتحدا القازدوغلى المؤرخ بسنة ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م والذي كان يملك قطعتي أرض كبيرتين مزروعتين بها^(٥).

وجزيرة الفيل تمثل الآن قسم شبرا من القاهرة والجزء الجنوبي منها يعرف بجزيرة بدران، وكانت جزيرة الفيل تشغل المنطقة التي يتوسطها الآن شارع شبرا من الجنوب للشمال ويحدها من الغرب النيل حيث شارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل حاليا ويحدها من الجنوب شارع جزيرة بدران وشارع بركات، ومن الشرق خط السكة الحديد التي حلت محل سيالة المياه التي كانت فاصلة بين هذه الجزيرة والشرايية ومنية السيرج ثم طمت في سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م (شكل ١٦).

وبالاطلاع على خريطة الحملة الفرنسية يتبين أن أرض قسم شبرا كانت أرضا زراعية وبها الكثير من البساتين ومجموعة قليلة من المساكن بجزيرة بدران، ولم تستجد بها المباني إلا في عهد الخديو إسماعيل حيث أنشأ بها قصر الزهة (المدرسة التوفيقية الآن)، ثم تبعه الأعيان وكبار التجار فأنشأوا فيها القصور والبساتين على جانبي شارع شبرا ثم أخذت العمارة في الازدياد والاتساع إلى أن امتدت المباني إلى شاطئ النيل والسكة الحديدية وترعة الإسماعيلية^(٦).

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة القاضي جمال الدين بن عمر على الطنبدي المعروف بابن عرب الشافعي المتوفى سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م في: ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي، ت١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥١) ج٢، ص ٢٦٠.

(٢) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف سطور ١٩٨ - ٢٠٢، نشر فهمى عبد العليم، العمارة الإسلامية بمصر في عصر السلطان المؤيد شيخ.

(٣) وثيقة الأمير أزيك بن ططغ رقم ١٩٨ المحفوظة بدار الوثائق القومية.

(٤) ذكر ابن حجر على سبيل المثال أن ناصر الدين محمد بن محمد الاسكندراني المتوفى سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م كان واسع الثراء وقد عمر دارا عظيما بجزيرة الفيل استأجرها منه القاضي ناصر الدين البارزي كاتب السر في دولة المؤيد فشيدها واطاف عليها مباني عظيمة إلى أن صارت دار مملكة أقام بها المؤيد مدة. انظر: انباء الغمر، ج٣، ص ٣٢.

(٥) كتاب وقف الأمير عثمان كتحدا القازدوغلى رقم ٢٢١٥ المحفوظ بوزارة الأوقاف، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٦) محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٠٩ - ٣١٠.